إنجلترا قبل ثورة الفلاحين ١٣٨١م

أ.د. أسامة حسيب إبراهيم حسيب (*)

- أوضاع إنجلترا السياسية
- الأوضاع الاقتصادية
- الأوضاع الاجتماعية
- الأوضاع الدينية

أولاً: الأوضاع السياسية :-

دخلت إنجلترا وفرنسا في العديد من الحروب في الفترة من ١٣٦٤م إلى ١٣٨٠م ، وكان التفوق حليف الفرنسيين ، فبعد وفاة الملك حنا الثاني الطيب في الثامن من إبريل ١٣٦٤م(١). وتولى خلفاً له أبنه وولي عهده الملك شارل الخامس في الثالث عشر من إبريل ١٣٦٤م (٢) .

استعادت فرنسا أنفاسها بعد الهزائم المتتالية من الإنجليز بفضل ملكها شارل الخامس ، الذي أستحق أن يوصف بالملك الرشيد - les ageroi - وذلك أنه شهد من تسلط الغوغاء في الأيام السود التي تلت كارثة بواتييه ١٣٥٦م ، مما جعله يمقت أي نوع من أنواع الحكومة الشعبية لذا ترسمت سياسته لإنهاض فرنسا طريقاً غير مجلس طبقات الأمة الذي لم ينعقد سوى مرة واحدة (٣) . وسعى شارل الخامس إلى إصلاح النظام العسكري الذي خلق نواة القوة الدائمة ، فألغى الحروب الخاصة حقناً لدماء المحاربين وفرض ضرائب جديدة لتمويل رواتب الجند ، ومنح إعفاءات واسعة لبعض المدن . وأمر بالاعتناء بالحصون وحصن باريس بحوائط دائرية جديدة (٤) . وعين السير دي جويسكلين قائد للجيش ، وأتخذ الملك تدابير شتي لتأمين النظام ، فجعل الضباط والمفوضين مسئولين تجاهه عن مسلك قواتهم ، وعن دفع رواتب الاستحقاق وأنشأ ديواناً خاصاً أطلق عليه اسم ((ديوان التفتيش

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

1 - Cambridge Medieval History, Bury, vol. VII, Cambridge, 1926, P. 459.

2- Froissart J., Chronicles Froissart , by John Bunchier, London , 1930, P. 151

٣- نظير حسان سعداوي : تاريخ إنجلترا وحضاراتها ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٤٨.

٤- لويس الحاج : الجيش الفرنسي ، منشورات دار الكشوف ، ط١، بيروت- ١٩٤٥ ، ص٦٦.

- Cam. Med. Hist., vol. VII, P. 362.

)) وناط به السهر على حسن تنفيذ الأوامر الملكية ، وأشرف بنفسه على تحصين المدن وشيد قلعة فانسن –Vincenn – وأمر بتشييد "الباستيل" وأخذ الملك المصلح بيد المدفعية الحديثة في فرنسا . وأستخدمها في ضرب المدن الحصينة فأعطت نتائج باهرة [١] . وأنشأ الملك كذلك مجلس العامة وأدخل في هذا المجلس البرجوازيين وصغار الفرسان مع كبار اللوردات والنبلاء، وأوجد الانتخابات لاختيار أعضاء البرلمان، وكانت أهم إصدارات البرلمان جمع الضرائب. فمن حقه إبداء الرفض والقبول في زيادة الضرائب التي يقرها المجلس[٢]. وكانت الحروب لا تنطفئ نيرانها بين الإنجليز والفرنسيين فبعد معاهدة بريتاني وخاصة بعد أن أشتد التنازع على أمارتها بين الكونت شارل بلوا والكونت حنا مونتفرات، وقدم الإنجليز المساعدات إلى مونتفرات في مواجهة شارل أمير بلوا , وأمدوه بجيش تعداده حوالي أربعمائة من الفرسان وقدر كبير من المشاة يقودهم السير جون شاندوز قائد الجيش الإنجليزي. وأمد ملك فرنسا شارل بلوا بجيش به ألف مقاتل تحت قيادة قائدة جويسكلين لأن شارل بن مرجريت شقيقة فيليب فالوا [٣].

وبدأت رحى المعركة في يوم السبت الثامن من أكتوبر ١٣٦٤م بالقرب من إيوارى AUray - في إقليم بريتاني وكانت حرب دموية بين الفريقين حيث قام السير شاندوز بالعديد من الأعمال البطولية وأنتصر الكونت مونتفرات وجنده على الدوق شارل بلوا الذي جرح في المعركة جرحاً بليغاً مات على أثره ، وأسر الإنجليز القائد الفرنسي دي جوسكلين [٤]

وبعد المعركة تم التوصل إلى الصلح حيث عقدت معاهدة بين إنجلترا وفرنسا في مدينة غراند - Guerand - في الحادي عشر من إبريل ١٣٦٥م، وصار حنا مونتفرات بمقتضاها دوقاً لبريتاني ويرثه فيها من نسله الذكور من يكون منهم الأكبر سناً [٥] .

ثم دخلت إنجلترا في حرب أخرى مع فرنسا أثرت في الوضع الاجتماعي داخلياً ،حيث كان الأمير بطرس الصارم - peterle cruel- متزوجاً من الأميرة بلانش أخت ملك فرنسا ١٣٥٣م ثم هجرها وتفرغ لعشقته الدونا ماريا البرتغالية - dana maria - وكان قاسياً على الرعية ثم دس لها السم ، فخرجت عليه الرعية تحت رئاسة هنري دواترا نستاما . H.De transtma– أخيه غير الشرعي ، وأنتهز الملك شارل الفرصة وأرسل قائده جويسكلين على رأس جيش ، وعندما

٥- لويس الحاج : المرجع السابق ، ص٦٦ - ٦٧ .

2 -Stephenson C., Medieval History Europe , London , 1953 , P . 523.

3 - Froissart of Chronicles , P. 152.

4 - Froissart of Chronicles , P. 154 ; Charlotte yonce , History de France, London , 1909 , P. 30 .

٤- اسماعيل سرهنك: حائق الأخبار عن دول البحار ، القسم الأول ، جـ٢، ط ، القاهرة - ١٩٢٣م ، ص١١٥.

وصل جويسكلين هرب بطرس الصارم وتولى العرش هنري دواترا نستاما ، والتجاء بطرس إلى الأمير الأسود بن الملك إدوارد الثالث وحرض الأمير الأسود بطرس على استرجاع مملكته ووعده بالمساعدة ، وبالفعل قاد الأمير جيشاً بلغ تعداده حوالي عشرة آلاف مقاتل ودخل به إسبانيا وحارب جيوش هنري وهزم جوسكلين بالقرب من بلدة ناجيرا - Nanage ـ في الثالث من إبريل ١٣٦٧م [١] .وعندما أنسحب الأمير الأسود من إسبانيا ، أعان البابا ملك فرنسا هنري دوترانستاما على محاربة أخيه بطرس فحارب أخيه وانتصر عليه في معركة مونتيل - Mnmoel- وقبض عليه وذبحه بيده ١٣٦٩م ، وجلس هنري على عرش قشتاله وعرف بهنري الثاني ، ووقع على معاهدة دفاع وهجوم مع شارل ملك فرنسا [٢].

ودخلت إنجلترا في حرب كذلك مع فرنسا بعد استيلاء الفرنسيين على ليموج - limoges- الإنجليزية حسب اتفاقات بريتاني وكاليه ، وكان الأمير الأسود قد ولى عليها أسقف المدينة ، وقرر الملك الفرنسي وقائده جويسكلين أن يستعيدوا المدينة تحت للسيادة الفرنسية مره أخري ، فقام جويسكلين بحصار المدينة ، و تم تسليم المدينة للفرنسيين [٣] . وعندما وصلت هذه الأخبار إلي الأمير الأسود ، حزن علي خيانة الأسقف رفيقه الذى كان يثق فيه ثقة كبيره ، وأقسم بشرف والده الملك إدوارد والذى لم يسبق له أن حنث بذلك القسم أنه سيقوم باسترداد تلك المدينة ، وأن يجعل سكانها يدفعون ثمناً غالياً جزاء خيانتهم [٤] . وأستعد الأمير لمحاربة الفرنسيين ، فرحل عن إنجلترا في آلف ومائتان من الفرسان والمساعدين ، وآلف من رماه السهام ، وآلف من المشاة ورحل بصحبته أخيه دوق لانكستر وإيرل كمبريدج وإيرل بمبروك وقائده بوش ، وأخذ العديد من الدوقات والكونتات واللوردات الإنجليز الأقوياء ، وعندما علمت البلدة بقدومه ومحاصرته لها ارتجفت رعباً من غضب الأمير ، وأقسم الأمير المريض أنه لن يرحل عن المدينة مطلقاً حتى يستردها [٥] . وخشى الأسقف والمواطنون علي أنفسهم من غضب الأمير بعد بعد خيانتهم له وتسليمهم المدينة للفرنسيين وندموا علي ذلك . وعلم الأمير إدوارد بعدد الرجال المدافعين عن المدينة ، وتأكد أنه لن يستردها بسهوله عن طريق الهجوم المباشر ، وأمر الحفارين في جيشه بحفر نفق تحت أسوار البلدة ، وحاول أهالي ليموج إعاقة أعمال الحفر دون جدوى ، وأبلغ الحفارون بعد شهر الأمير

١- لويس الحاج : المرجع السابق، ص٦٩ – ٧٠ .
٢- أسماعيل سرهنك : المرجع السابق، ص١١٥-١١٦.
– Froissart of Chronicle, PP . 175-182.
.
3- Com. Med. Hist., Vol. V II, P. 363.
4- Froissart of Chronicles, P. 200 .
5- Froissart of Chronicles, PP. 200 - ٢٠١.

الأسود من الانتهاء من أعمالهم ، وأشعل الحفارون النيران داخل الحفر ، ودمروا جزءاً كبير من السور الذى ملاءة الحفر [١] .

وأندفع الأمير الأسود وقواده داخل ليموج ، وقام الجميع بعمليات السلب والنهب ، ثم قاموا بقتل الرجال والنساء والأطفال . وكان مشهد مثير للرجال والنساء والأطفال وهم جاثون علي ركبهم في حضرة الأمير يلتمسون منه الرحمة من المشاهد الباعثة علي الشفقة ، ولكن الأمير لم يستمع إليهم وأمر بقتلهم جميعاً . ولم يظفر الشعب المسكين الذى لم تصدر عنه أية خيانة ببارقة من الرحمة ، ولو كان هذا القلب يتذكر الرب ولو قليلا لبكى تحسراً علي ما لاقاه أولئك القوم وما حل بهم قتل وتدمير، حيث قطعت في ذلك اليوم رقاب أكثر من ثلاثة آلاف نفس[٢] .

وسلبت المدينة ونهبت عن آخرها ، ثم أحرقت وعم فيها الخراب والدمار . وعندئذ رحل الإنجليز بغنائمهم وأسراهم ، وانسحبوا إلي مدينة كونياك – Cognace - ومنح إدوارد جنوده أجازة ليرحلوا مكتفياً بما فعله في هذا العام ، وشعر الأمير بتوعك واعتلال في صحته. وساءت أحوال الأقاليم التى تنازلت فرنسا عنها إلي إنجلترا في الأراضي الفرنسية بموجب معاهدة بريتانى ، لكثرة الضرائب وظلم الولاة وانتشار العصابات التى تقوم بالسلب والنهب ، فتذمر الأهالي في الأقاليم ، وشكوا كذلك للملك الفرنسى سوء أحوالهم . وكان الأمير الأسود مريضاً ، وولده الملك إدوارد الثالث طاعن في السن ، فأنتهز ملك فرنسا الفرصة ونقض المعاهدة ليتخلص من وطاءتها ، وزحفت الجيوش الفرنسية تحت قيادة جويسكلين ، فاستولى بسرعة علي كثير من البلاد الواقعة بين نهرى جيروندو لوار [٣] .

واستولى الفرنسيين على مدينة بواتييه في سنة ١٣٧٢م وكانت بها حاميه لاروشيل ، التى لم تكن تزيد عن مائة جندى فقط تحت قيادة ضابط يدعى فيليب مانسيل - F. Mansel – ولما رأى هذا الضابط حرج موقفه أخبر حكومته بذلك ، فأرسل إدوارد الثالث الشاب حنا دوهاستنج - J.de Hasting – بجيش وأسطول ، وكان أهالي لاروشيل قد فتحوا أبوابها إلى الكوندسطبل جويسكلين ، ثم أدميرال قشتاله حليف فرنسا بأسطوله إلى لاروشيل ، ولما ظهرت أساطيل الإنجليز أمامها في الثالث والعشرين من يونيه سنه ١٣٧٢م ، ووجدت بوغازها مسدود بسفن فرنسا وقشتاله ، وكانتا تحت قيادة أمبرو سيوبوكا تجرا – Ambrosio Bocunegr - الإسباني ، واحتدم القتال بين الفريقين ، وانتهى بهزيمة الأساطيل الإنجليزية وأسر القائد الإنجليزي [٤] .

1- Froissart of Chronicles, P. 201 .

2- Com. Med. Hist., Vol. V II, P. 364 .

٣- اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص١١٦-١١٧ .

1- Thompson, Op. cit ., P. 368 .

وأرسل الملك إدوارد الثالث حمله سنة ١٣٧٣م بقيادة ولده الثالث حنا أمير جنت ، ونزلت في كاليه وتوغلت في وسط فرنسا حتى وصلت إلى بوردو متعبه دون أن تشتبك القوات الفرنسية معها في معركة حاسمه ، بل أعتمد جويسكلين على وسائل المفاجآت والكمائن وتقطيع أوصال الحملة الإنجليزية والاستيلاء على الحاميات عن طريق الحيل ورشوه الحراس بإرسال المال والعاهرات الجميلات إليهم [١] .

وهكذا أستطاع جويسكلين أن يجلى جيوش إنجلترا في غيبه ملكها العجوز وولده المريض الأمير الأسود عن جميع الأراضي الفرنسية فيما عدا بايون وبوردو وكاليه ، وذلك من خلال الحملات التى قاموا بها ما بين سنة ١٣٦٩م حتى سنة ١٣٧٧م [٢] .

وفي سنة ١٣٧٤م نزلت أساطيل فرنسا وقشتاله على سواحل إنجلترا ، وكانت الأولى تحت قيادة جان فيين ، والثانية تحت قيادة فرناند سانشى – F. Sanchey - وخربت ثغور بورتثموث ـ Portsmouth ـ وغيرها ثم نزل جان فيين على جزيرة وايت وخربها ، ودخلت أيضا الأملاك الإنجليزية بريتاني التي كانت في حوزة الفرنسيين ، ولما كان أهالي بريتاني يكرهون فقد حريتهم فثاروا على ملك فرنسا ، وأعادوا دوقهم المنفي إلى بلادهم ، وفي تلك الأثناء أستعفي كافة القواد البريتانيين من الجيش الفرنسي حتى القائد جويسكلين العظيم مراعاة لخاطر مواطنيه ، إلا أن الملك شارل استرضاه ، فقبل أن يعودوا إلى الخدمة تحت شرط إلا يسل سيفه على أهل بلاده ([٣]) .

وبعد أن أنهكت الحرب الطرفين تم توقيع الهدنة بجهود البابا في السابع والعشرين من يونيو سنة ١٣٥٧م في بروجز، وبعد التوقيع على الهدنة كان الأمير الأسود قد أشتد عليه المرض ، وتوفى في يوم الأحد الأول من إبريل ١٣٧٦م وحزن لموته الإنجليز والفرنسيين على حد سواء . لقد كان الأمير فارساً نبيلاً من طراز خاص ، ودفن في كنيسة ويستمنستر بلندن على يد رئيس أساقفة ريون([٤]) . وبعد وفاة الأمير الأسود حزن والده الملك إدوارد الثالث حزناً شديداً لفقده ويأس من الحياة ، وأستبد مجلس الأمة به وأبدلت درايته وحكمته بطاعة عمياء لعشيقته الطموحة أليس بريه - Alice perres ـ وهي امرأة عرفت بالذكاء والجمال ،

2- Lodge R M A., The Close The Middle Ages, 1272-1494, London, 1910, P. 95 .

3- Sidney painter, A History of The Middle Ages 284 -1500, New York, 1954, PP.344-345.

٤- أسماعيل سرهتك : المرجع السابق ، صـ١١٧.

[1]- Froissart of Chronicles, P. 205 ; Buckley AB k., History of England for beginners , London , 1916.p.312.

لكنها كانت سيئة السمعة ، فتوفى بعد أبنه الأمير بسنة واحدة في ١٣٧٧م في شين بالقرب من ريتشموند ودفن دير ويستمنسر .

توفى الملك الذي لم تشغله حروبه عن الإصلاحات الداخلية ، ففي عهده أعتاد البرلمان الاجتماع للموافقة على أمداد الملكية بالأموال اللازمة لمواصلة الحروب مع فرنسا ، وصار البرلمان في أيامه مجلسين منفصلين فغدا البارونات والأساقفة في مجلس اللوردات ، وممثلو المدن وفرسان المقاطعات في مجلس العموم ، وكل من المجلسين صاحب حق مقر في إدارة شئون البلاد ، ولا يزالون كذلك إلى اليوم ، وأصدر الملك إدوارد الثالث أكثر من قانون لإصلاح الكنيسة الإنجليزية ، فألغى إرسال الأموال إلى البابوية في روما وحرم نظر القضايا أمام المحاكم البابوية ، كما حرم وصول أوامر البابوية إلى إنجليز ([1]) .

وتولى العرش الإنجليزي بعد الملك إدوارد الثالث حفيدة ريتشارد الثاني بن الأمير الأسود ، وهو صبي لم يتجاوز عمرة الحادية عشر ، واحتفلت لندن بالملك الجديد احتفالا عظيماً ، وأديرت المملكة بيد أوصياء ضعفاء فبدأ طالع الملكية الفرنسية في الصعود ، وامتلأت في عهده البلاد بالقلق الشديد والحزبية البغيضة ، وقام بالحد من سلطة البرلمان وفرض ضرائب وغرامات كبيرة ، وصادر الأملاك بحجج واهية ، وأرغم على تقديم الهدايا والقروض وانتشار قوة عسكرية خاصة للمساندة في المجابهة مع البرلمان ، وأدت سياسته التعسفية إلى نشوب الثورات ضده ([2]).

ولقد كان عمل البرلمان عند تشكيلة النظر في :-

١) كان ينظر في طلبات الملك المالية فيرفضها أو يلبيها .

٢) كان يشرع الشرائع : وفي أول الأمر كان يتولاه مجلس اللوردات (الأكليروس والبارونات) مع الملك ، ولكن موافقة مجلس العموم منذ البداية ضرورية ، وأما الطبقة الثالثة (مجلس العامة) فصارت بالتدريج تشريع القوانين إذ تقترحها وتلح في طلبها .

٣) كان ينظر في بعض القضايا الخاصة بالملك ، وكان هذا النوع من القضايا مختصاً بمجلس اللوردات وحده .

٤) كان يشور على الملاك في السياسة الخارجية ، ومع أن مجلس العامة كان ذا حق بهذا الشأن أيضا فلم يكن يعبأ به ([3]).

وعندما تولى ريتشارد كانت الدولة في حالة حرب مع فرنسا ، وكان الرأي العام في إنجلترا لم يميز بين دخول الدولة في حروب أو القيام بالإصلاحات

---

[2]- حسان سعداوي : المرجع السابق ، صـ ١٥٠-١٥١.

[3]- أ ـ ل فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة محمد زيادة والباز العريني ، القسم الثاني / ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥١ ، صـ٣٢٦ .

[1]- دافد واطسن راني : تاريخ أساس الشرائع الإنجليزية ، ترجمة نقولا الحداد المكتبة الشرقية ، القاهرة ١٩٢٣م ، صـ٦٨.

الداخلية في إنجلترا ، وفي البداية أقر البرلمان بعض الضرائب لتمويل الحرب ، وكان الملك ريتشارد يريد صنع السلام مع الفرنسيين ، ولكنه لم يستطيع مثل جده أن يستفيد من السلام الذي صنعه الآخرين ، وإنما أكتسب هو وشعبيته عن طرق رفض هذا السلام مع الفرنسيين ([1]) .

وساءت العلاقات السياسية مع فرنسا من جديد ، عندما أرسل دوق بريتاني إلى ملك إنجلترا يطلب نجدته من سيده ملك فرنسا ، الذي أخرج حملة للاستلاء على الدوقية ، فأصدر الملك ريتشارد ومجلس الوصاية في ١٣٧٦ م أمراً أن ينطلق أربعمائة رجل من حملة السهام إلى بريتاني ، وأن يكونوا تحت قيادة السير جون ارندال - J. Arundel - ومعه السير توماس بنستر -T. Bnastier - والسير هوج واللورد باست وأندفع هؤلاء السادة إلى هامبتون -Hampton – وأثناء وجودهم في معسكراتهم هبت عليهم ريح عاصف ، ولم يستطيعوا تنظيم صفوفهم بسبب قوة الرياح ، ومع شدة ارتفاع الموج تحطمت سفنهم وغرق الجميع ، وكانت خسارة كبيرة للإنجليز ولم ينج من الغرق سوى السير هوف ومعه سبعة من الملاحين الذين أمسكوا بسارية السفينة ودفعتهم الرياح بقوة إلى الشاطئ ، وبعد أن انتهت العاصفة رجعوا مرة أخرى إلى هامبتون وفي الموسم التالي استولى الفرنسيين بقيادة أوليفر كليسون - Oliver Clisson - على مدينة دنان -Dinan – في بريتاني واستسلمت بريتاني للفرنسيين [٢]

والحقيقة أن ريتشارد الثاني كان رجلاً واسع المطامع سامي النفس وجل أمانيه أن يحكم البلاد من غير مراقبة البرلمان أي خلافاً لإرادة الشعب ، ولا يخفى أن هذه الأمنية كانت عزيزة عليه جداً، وعليه أصر البرلمان أن يمارس حقوقه الدستورية [٣].

وأن كانت مدة حكم ريتشارد الثاني مليئة بالحوادث الداخلية وخاصة في التاريخ الاجتماعي والدستوري [٤]. إلا أنه كان هناك بعض الحوادث الخارجية وخاصة حروبه مع فرنسا ففي أواخر ١٣٧٩م ، نشب خلاف بين أهل إقليم لانجدوك لسوء تصرف دوق أنجو ، فأنتهز الإنجليز الفرصة وساقوا جيشاً واستولوا على عدة قلاع من حدود المقاطعة المذكورة ، فأرسل شارل الخامس قائدة جويسكلين بحملة كبيرة لطردهم إلا أن المنية عاجلته وهو يحاصر بلدة شاتونوف رندون في ١٣٨٠م وأوصى من تحته من الرؤساء بأن لا يتعرضوا بسوء للأرباب الفلاحة والنساء والأطفال والشيوخ ، وأن يعاملوهم معاملة طيبة ولا يعاملوهم كأعداء ، وقد تعجب قائد قلعة شاتونوف من شجاعة جويسكلين وضع

---

[1] - Com . Med . Hist. , vol. VII, p. 365.

1- Froissart of Chronicles, p. 235 ; Moliat Wolfe, The popular Revolution, PP. 130-131.

2- دافد واطسن راني : المرجع السابق ، صـ ٨١-٨٢ .

3- دافد واطسون راني : المرجع السابق ، صـ .٨١

قائد القلعة في نعشة مفاتيح القلعة عملاً بما اتفقا عليه من قبل وهو أن يسلم له القلعة [١] ومات كندسطبل فرنسا الذى أستطاع أن يحرر حوالى تسعمائة وأحدى وعشرون قلعه من أيدي الإنجليز ، و أخذ علي عاتقه القضاء على نقاط الضعف في جنوب فرنسا الغربي فحالفه التوفيق ، ولكنه مرض ومات سنة١٣٨٠م [٢] .

ولم يعش الملك شارل الخامس بعده سوى شهرين فقط ، ويقال إن شارل القبيح ذلك الخائن الذى عكف علي خدمة الإنجليز هو الذى وضع له السم في العسل ، ودفن في سانت دينس في مقبرة أعدها لنفسه ، وجعل بجانبها مقبرة جويسكلين ، ويبدو أن القدر وضع نهاية لأشهر ملكين وقائدين في أربع سنوات حين مات الأمير الأسود سنة ١٣٧٦م ولحق به والده الملك إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧م . و توفى القائد جويسكلين سنة ١٣٨٠م ولحق به سيده الملك شارل الخامس ملك فرنسا بشهرين [٣] .

ودخلت فرنسا في تنافس حزبي شديد بين أبناء البيت المالك والتابعين لهم من النبلاء من " آل بورغينيون " والشطر الأخر ألتف حول " آل أرمنياك " بيد أن تصدع الجبهة الداخلية لم يغير الفرنسيين لعبور نهر المانش والدخول في حرب مع الإنجليز ، وذلك لأن الخلافات الداخلية في إنجلترا قد زادت حدتها ، فشغلت الإنجليز طوال خمسة عشر عاماً عن استثمار المصاعب التى كانت فرنسا تتخبط فيها عائدة القهقرى عشرات السنوات ، ولم يحسن الفرنسيون أنفاق هذه المدة الطويلة من الزمن ، بل قضوها في المنازعات مهملين القواعد والمبادئ ، التى خلفها شارل الخامس وجويسكلين لتكون أساساً في تنظيم الجيش [٤] .

أما عن سلطة البرلمان في إنجلترا في مواجهة الملك فكانت قوية ، حيث أن البرلمان قد خلع ملكين لحادثين خطيرين القرن الرابع عشر ، ولكن مازال الملك لذلك العهد صاحب المكانة العليا الممتازة ، وذا امتيازات خصوصية مهمة . وبما أن هذه الامتيازات الملكية لم تكن مدونة ولا مفهومه بصراحة كان الملوك عرضة لأن يسيئوا التمتع بها في بعض الأحوال . وكان جانب كبير من الارتقاء السياسي في إنجلترا مسبباً عن الاحتكاك الدائم بهذا الشأن بين مجلس العموم والملك . وكان الأشراف يتحيزون تارة إلي هنا وأخرى إلي هناك ، والنظام النيابي الذى وضعه الملوك في مجلس العموم ، وتعاون نواب الولايات ونواب الحواضر أجبر الطبقة الثالثة أن تحافظ علي مصالح الأمة تمام المحافظة [٥] .

4- لويس الحاج : المرجع السابق ، صـ٨١ .

5- لويس الحاج : المرجع السابق ، صـ٧٠ .

1- مونيقورس الفرنساوي : تاريخ فرنسا من مبدأ ملكهم إلي الملك لويس فيليب ، ترجمة حسن قاسم ، ط١ ، القاهرة ، ١٢٦٤هـ ، صـ ١١٣ .

2- لويس الحاج : المرجع السابق ، ص٧٠-٧١ .

- Gurirau M., History de France, Paris, P.97 .

3- دافد واطسن رانى : المرجع السابق ، صـ٨٥ .

أما الامتيازات الملكية فكانت منحصرة علي الخصوص في وضع الضرائب والتشريع والتنفيذ, وكان الملك يعتبر أنه " يعيش من ملكه " أى أن يضرب الضرائب علي الأمة لكى يعيش ولكنه كان على الأمة أن تجتهد بأن لا تجبى ضريبة منها بغير رضاها . وكذلك كان للملك حق بأن يستنبط شريعة، وأن لا يوافق على قانون رغب به البرلمان . ولا يخفى أن حقاً كهذا يمكن أن يمارس في إيذاء الأمة , أما الامتياز الملكى الأعلى فكان سلطة التنفيذ النهائية . وكان الملك يعتبر قائد الجيش العام ، وله حق تقرير السلم وإعلان الحرب ، وهو ينبوع العدالة والقضاء مشتق منه . وفي وزارته كان له الحق غير الصريح أن يصدر قوانين وقتيه في المسائل الإجرائية تسمى " أوامر عاليه " فتارة كانت هذه الأوامر جائزة منذ صدورها ، وتارة كانت تستمر مدة طويلة فتناقض القوانين الشرعية الثابتة التى وضعها البرلمان و الملك المسماة " سنناً " وهكذا كان للأمة عدة بواعث للمقاومة . وعلاوة على هذه الامتيازات كان للملك امتيازات ماليه واجتماعيه تخص بحكم الضرورة مالك الأرض الأعلى [١] .

لم يتبدل الحال في نظام مجلس طبقات الأمة أو البرلمان – Good Parliament - الذى كان يمثله عدد كبير من العامة ، أما مجلس اللوردات الذى يضم كبار اللوردات والأكليروس . مجلس العموم فيمثله ممثلو المدن وفرسان المقاطعات ، وكل واحد منهم له حق في إدارة شئون البلاد [٢] .

وأكد الإنجليز عن طريق البرلمان مبدأ عظيم وهو : " أن موافقة مجلس العامة ضرورة لكل لائحة قبل أن تصبح قانوناً نافذاً " حتى أن الملك إدوارد الثالث عندما أحتاج المال لكى يعلن الحرب علي فرنسا ، فحاول أن يجبي ضرائب غير قانونيه . ولكن مجلس العامة كان كل مرة أشد إصرار من المرة التي قبلها في أن يستأذن قبل أن تضرب الضريبة علي البلاد . و لما مات الملك إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧م كانت البنود المختصة بالضرائب في " اللائحة الكبرى " أساس العلائق المالية بين الملك والأمة . وقد أكتسب العامة أمرين جوهرين في القرن الرابع عشر الأول .أنهم كانوا في الأحوال المهمة يفوزون في مسألة تعين الطرق الموافقة لإنفاق الأموال الخصوصية التى كانوا يؤذنون بجبايتها . والثانى أنه في نهاية حكم الملك ريتشارد الثانى ألفت لجنة من الموظفين العامة للشغل في إعداد ميزانيه جديدة لكل مجلس من مجلسي البرلمان في مده الميزانية الجارية ، وكان عمل هذه اللجنة رسمياً . فضلاً عن ذلك نالوا صوتاً في التشريع وفى مراقبة الضرائب الفعلية ، وأصبح مجلسهم ذا رأى في مسائل السياسية الخارجية له أن يحتج على الوزراء الذين لا يكون تصرفهم مرضياً [٣] .

١- دافد واطسن رانى : المرجع السابق ، صـ ٨٥-٨٦ .

2- Buckley, OP. cit., P. 98 .

٣- دافد واطسن رانى : المرجع السابق ، صـ٨٧ .

ثانياً : الأوضاع الاقتصادية : -

يذكر – آرثر – أن التاريخ الاقتصادي للدولة يعنى باختصار توضيح التقدم المدى بشكل أساسي وملموس [١]. والتطورات الاقتصادية في التاريخ الإنجليزي هى التى يقوم بها الأفراد في الدولة، وأن كان التاريخ الاقتصادي نافع ومفيد لكل شعب ، وذلك للحصول على مورد الرزق والارتقاء بالمجتمع لأفضل معيشة ممكنة ، وأن كان هذا النشاط والفاعلية من بدء التاريخ ، ولم يكن الدخل فردى ومستقل ، ولكن العمل الاقتصادي عملاً جماعياً بكل أشكاله[٢] .

والحقيقة أن إنجلترا كانت تتمتع وحدها في أوربا بحكومة مركزيه قوية ، مكنتها من فرض سيطرتها علي كل أطرف القطر الإنجليزي ، وبدون مواجهه عقبة كبار الإقطاعيين ، وتمتعت بنظام اقتصادي عالى بالنسبة لكل ولايات القارة الأوربية ، ولكن صناعتها وكذلك تجارتها لم تستفيد من هذه الظروف السابقة ، وحتى منتصف القرن الرابع عشر ظلت قطراً زراعياً رئيساً باستثناء مدينة لندن التى تردد علي مينائها تجار من القارة الأوربية [٣] .

ولقد كان ختام القرن الثالث عشر قد شهد انهيار الدويلات الصليبية ، وبروز المجتمعات الوطنية الجنينية في فرنسا وإنجلترا ، وهو الوقت الذى حدثت فيه التغيرات في إيقاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى أوربا وبدأت تمارس تأثيرها.

ذلك أن عصراً من التوسع والنمو كان قد أقترب من نهايته ، فقد بدأت فتره من الاستقرار بل الانحسار في بعض النواحي مثل هذه التطورات من طبيعتها أن تجعل من المستحيل تثبيتها بأيه تواريخ دقيقه ، ومن الصعب تماماً أن تعمم تأثيراتها بدقه . ولكن إذا حاولنا التصميم فربما يمكن للمرء أن يقول أن أبرز تأثيراتها مع التجاوز ، كان هو ما يمكن وصفه بأنه غزو حكومى للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، وإذا سألنا لماذا حدث هذا الغزو ، فربما كانت الإجابة بقدر من التجاوز مره أخرى ، بأن هذا راجع إلي حقيقة أنه بينما وصل نمو التجارة والسكان في أوربا إلي مداه لم تكن أساليب الإنتاج و التجارة قد وصلت إلي مداها بعد . وهكذا خلقت الضغوط التى أمكن احتواؤها علي المستوى المحلى والفردى ، ولكن فقط من خلال التنظيم الأفضل والتضامن الاجتماعي المتزايد ، و التوجيه الحكومى في المجالات الاجتماعية والاقتصادية [٤] .

1- Arthur, An Economic History of British isles, New York, 1957, P. 1 .

2- William Ashley, The Economic organization of England, London, 1933, P. 1 .

٣-هنرى بيرين: تاريخ أوربا الاقتصادي والاجتماعي، ترجمة عطيه القوصى، الهيئة العامة للكتاب، صـ146 .

١- موريس كين : تاريخ و حضارة أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للنشر ، ١٩٩٤م ، صـ٢٤٣ .

ولقد كانت الجماعات العاملة في المدن الصناعية الكبري تحت رحمة الكوارث والتعطيل حين تتوقف المواد الخام عن الورود نتيجة للحروب أو خطر التصدير ، تتوقف الأنوال عن العمل وتملأ جماعات المتعطلين الشوارع ، وتتسكع في البلاد وتتسول خبزها . وبعيداً عن تلك الفترات فترات البؤس المحتوم ، فإن ظروف المعلمين وملاك الورش ومستأجريها كانت مرضيه ، ولكنها كانت أبعد من ذلك مع عمال اليومية الأجراء الذين يعملون عندهم . لأن معظمهم كانوا يعيشون في حارات في حجرات مستأجره أسبوعياً ، ولا يمتلكون سوي الملابس التى عليهم . ولقد تنقلوا من مدينه لأخرى مؤجرين أنفسهم لأصحاب العمل . ولقد كانوا يجتمعون صباح كل يوم أثنين ويلتقون في الميادين أمام الكنائس ينتظرون فى قلق أى معلم أو (أسطى) يستأجرهم لمدة أسبوع . ويبدأ يوم العامل من الفجر وينتهى عن منتصف الليل ، وتدفع الأجور مساء كل سبت ، ولقد نص التنظم البلدى على أن يكون الدفع نقداً ، لأن تجاوزات نظام دفع الأجور سلعاً لا عمله كانت عديدة ، وهكذا كون الصناع في الصناعة الكبرى طبقة منفصلة بين سائر الصناع ، وحملوا تشابهاً قريباً للغاية من طبقة البروليتاريا الحديثة . ولقد تميزوا " بأظافرهم الزرقاء " وملابسهم الرثة وأخلاقهم السيئة . ولقد كان المعلمون لا يخشون معاملتهم بخشونة ، لأنهم كانوا يعرفون أنه سرعان ما سيمتلئ مكان أولئك الذين يطردون منهم [١] .

وبالنظر إلى التطورات الاقتصادية والاجتماعية في هذه الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ، والتى غالباً ما كانت فترة من الجمود والاضمحلال ، يحسن بنا أن نتذكر أنها كانت الافتتاحية التى جعلت من تحقيق الإنجازات التى تمت في فترة النمو التالية ، وإذا قارن المرء بين التوسع والنمو في القرن السادس عشر ومثيله في القرن الثالث عشر ، سوف يلاحظ أن الحكومات لعبت دوراً أكبر كثيراً في القرن السادس عشر . وأن دور الأفراد كان أقل حسماً ، وهكذا كان الوضع نتيجة الغزو الحكومى للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية . كما أنها علامة على أن الفترة التى توسطت الفترتين لم تكن مجرد فترة جمود ، ولكنها كانت فترة تكوين أيضاً . وفي عملية التكوين يبدو هناك عوامل ثلاثة كانت لها أهمية خاصة ، أولها هو حقيقة أن النمو التجارى الأوربي قد وصل آنذاك إلى منتهاه ، كما كان يعانى الانحسار في بعض المناطق . وكان العامل الثانى هو الجهد المشترك فى الحياة الاقتصادية فى ظل الحرب الدائمة وسلسلة الطواعين والأوبئة الكبرى التى أطلق

- Coultion G., Medieval Panorama the English Scene from Conquest to Reformation, Press, 1949, PP. 281-288.

٢- هنرى بيرين : المرجع السابق ، صـ١٧٧ .

- William Ashley, OP. Cit., P. 40; Blakeley, OP. Cit., P. 38 .

عليها الموت الأسود (١٣٤٧ ـ ١٣٤٩م) . كان العامل الثالث هو التقدم الهائل في أساليب الإنتاج والتبادل التجارى [١] .

والحقيقة أن الموت الأسود كان له تأثير كبير جداً على إنجلترا لسنوات عديدة ، فقد ضربها بقوة في عامى ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩م ثم عاد مرة أخرى فى ١٣٦١-١٣٦٢م ووضع نهاية لثلث سكان إنجلترا ، مما أثر على الاقتصاد الإنجليزي [٢] .

ومن المؤكد أن التأثيرات الاقتصادية كانت قاسيه في المناطق التى ضربها الوباء بشكل أشد ، ومن بين هذه التأثيرات ندرة القوى العاملة ، وارتفاع الأسعار ، وتدنى الإيجارات بسبب نقص المستأجرين المستعدين لأخذ الأراضي الخالية ، ولسنا بحاجة إلى الشك فى الملاحظات الصحيحة فى أقوال المؤرخ الإنجليزي هنرى كنجتون الذى قال : " كانت هناك ندرة فى العمال لدرجة أننا كنا نرى النساء والأطفال الصغار يحرثون الأرض ويقودون العربات " ويصعب أن نجد مستوطنة خلت تماماً من سكانها بسبب الوباء ، ومن الواضح أن القصص التى تحكى أن واحداً بين كل عشرة أو أثنى عشرة رجلاً هو الذى نجا لا تتناسب تماماً مع الحقيقة . ومن المحتمل أنه كان هناك مناطق قليلة كان معدل الوفاة بها أكثر من الثلث فى الوباء الأول إذا كان الطاعون متكرراً ، وأستمر ينشب مخالبه فى أوربا بين الحين والحين حتى نهاية العصور الوسطى ، كما أن تأثيره أختلف اختلافا بيناً من مكان لأخر ومع كل التحفظات على خطورة الطاعون لا يمكن أن يكون هناك شك فى الحيرة والرعب اللذين سببهما . فقد كتب جاى شولياك طبيب البابا فى أفنيون " أن الأب لم يكن يزور ابنه ، وكذلك الابن لم يزور أباه . مات الإحسان ، وحتى الأطباء لم يجرؤوا على زيارة المرضى خوفاً من العدوى . وتدهورت الأحوال الاقتصادية فى البلاد [٣] .

ومن العدالة أن نشير أن القرن الرابع عشر لم يواصل تقدمه بسبب الكوارث التى اكتنفته وكانت مسئولة عن ذلك . ولقد بدأ أن المجاعة المخيفة التى ألقت الخراب على كل أوربا من ١٣١٥م حتى ١٣١٧م قد سببت خراباً عظيماً أكبر من أى مجاعة سبقتها . وأن الأرقام التى ذكرت حول مدينه يبرس تجعلنا بقدر المستطاع نقدر هذه المجاعة . ولقد عرفنا أن حكومة المدينة أمرت بدفن ثلاثة آلاف جثة من مايو حتى أكتوبر سنة ١٣١٦م ، مع العلم أن عدد السكان كان لا يزيد عن عشرين ألف نسمة . وبعد ذلك بثلاثين عاماً حدثت كارثة أكبر ، وهى

١- موريس كين : المرجع السابق ، صـ٢٤٤-٢٤٥ .

2- Henry Kighton, Chronicles The Black Death, Troms R B Dobson, London, 1970, P. 59 .

1- موريس كين : المرجع السابق ، صـ٢٥٢ – ٢٥٣ ؛ هـ . أ . فشر : المرجع السابق ، صـ٣٢١ .

- John Richardson, Annals of London A year By Year of A Thousand Years of History, London, 1988, P. 47 .

انتشار الطاعون (الموت الأسود) فى العالم الذى لم يكن قد فاق بعد من ضربته الأولى . ولقد كان هذا الوباء من أكثر الأوبئة التى ذكرت فى التاريخ فظاعة دون نزاع . ولقد قيل أنه سنة ١٣٤٧م حتى سنة ١٣٥٠م من المتوقع أن يكون قد أباد ثلث سكان أوربا ، وقد تبعته فترة غلاء شديد ، وإضافة إلى هذه الكوارث الطبيعية كان هناك كوارث سياسيه مثل حروب المائة عام التى دمرت فرنسا وأجهدت إنجلترا . كل ذلك كان أثقالا لكاهل الحياة الاقتصادية . فلقد تقلص عدد المستهلكين ، وفقد السوق جزءاً من قوته وتماسكه ، ولقد زادت هذه النوائب بالتأكيد من حدة المشاكل الاقتصادية التى جعلت القرن الرابع عشر من أكثر القرون مشاكل ، ولكن يجب أن نفكر فى تأثير هذه النوائب الرئيسة على التنظيم الاقتصادي نفسه . الذى كان قد وصل إلى حد أثارت فيه عملياته الاستياء فى كل من سكان المدينة والريف على حد سواء [١] .

ونتيجة للموت الأسود قلت الأيدي العاملة فى المزارع الإنجليزية ، حيث طالب الفلاح بأجر أحسن وأكثر إغراء من الخدمة فى الأرض ثمناً لعرق جبينه ، فعجز اللوردات أصحاب الضياع عن فلاحة أراضيهم إلا بتأجير الفلاحين من مختلف الجهات الخارجة عن حيازتهم الإقطاعية ، فتضاعفت القيم العمالية بإنجلترا مرة واحدة ، وخافت الطبقة الحاكمة فى إنجلترا من الحركة الجديدة ، وما سيترتب عليها من نتائج ثوريه ، فسنت قوانين حرمت على الفلاحين أن يأخذوا أكثر من الثلث فوق أجورهم . وقرر البرلمان الإنجليزي فى يونيو سنة ١٣٤٩م عودة الفلاحين وأرباب الحرف إلى أجورهم القديمة التى كانوا يتقاضونها فى سنة ١٣٤٦م كما حرم عليهم الانتقال من جهة إلى أخرى [٢] . ثم اتبعته الحكومة الإنجليزية بمرسوم ملكى آخر للعمال فى سنة ١٣٤٩م ، ثم تم تحويل المرسوم الملكى إلى قانون سنة ١٣٥٠م لمواجهة زيادة الأجور [٣] .

فقد كان هذا القانون الملكى سنة ١٣٥٠م يعمل على تنظيم العمل والأسعار والأجور ، والتى كانت قد التهبت ، بحيث تعود إلى مستواها قبل الوباء ، ويمنع الرجال من ترك أعمالهم بحثاً عن أجر أفضل ومن ناقلة القول أن نذكر أن هذه الإجراءات لم تنجح ، ولكن المسائل التى تضمنتها لم يكن من السهل تجاهلها ما دامت قد أثيرت مره أخرى . كان أصحاب الأعمال وفرسان المقاطعات فى البرلمان الإنجليزي أواخر القرن الرابع عشر يطلبون من الملك مراراً وتكراراً أن يفرض بقوة القانون أجوراً منخفضة للعمال . وسرعان ما أدى هذا الاضطراب

2- Stubbs W., The Constitutional History, England, Vol . II, Oxford, 1887, PP. 358 – 363 .

1- نظير حسان سعداوى : المرجع السابق ، صـ١٤٢-١٤٣ ؛ فشر : المرجع السابق ، جـ٢ ، صـ٣١٨- ٣٢٢.

2-Wickers, England in The Later Middle Ages, 4Edition, London, 1926, PP. 251-252.

الاجتماعي لفوضى . وثارت حوادث الشغب فى الكثير من الكونتيات فى إنجلترا أثناء الجلسات التى عقدت فى المحاكم لفرض قانون العمال سنة ١٣٥١م ، ولم يمض وقت طويل على بداية ظهور الطاعون ، حتى كانت فرنسا وإنجلترا قد ذاقت أول طعم لثورات الفلاحين ، فى انتفاضة سنة ١٣٥٨م بفرنسا عندما ثار الفلاحين فى فرنسا ، وفى ١٣٨١م عندما ثاروا فى إنجلترا [١] .

وبالرغم من قيام الحكومة الإنجليزية بإصدار مراسيم وقوانين ومحاوله فرضها بالقوة دون دراستها ، وتجاهل طبيعة السوق من الناحية الاقتصادية ، أدى ذلك إلى إحساس الفلاحين والعمال بالظلم الواقع عليهم ، وعدم استطاعتهم رفع هذا الظلم ، وأصبحت هذه القوانين شرعيه عن طريق البرلمان بل وازدادت العقوبات مما وسع الفجوة بين السادة الإقطاعيين والعمال . وفى سنة ١٣٦١م أعلن البرلمان موافقته على قوانين صارمة لمعاقبة أى عامل يترك أرض السيد الإقطاعي بحثاً عن أجر أعلى [٢] . وفى عام ١٣٧٢م أجتمع البرلمان ليعبر عن قلقه من هروب العمال وانتقالهم من مكان لأخر طلباً فى زيادة الأجر ، وعن استقبالهم بترحاب ومودة من السادة الإقطاعيين الذين يذهبون إليهم ، وأن كان عليهم أن يردوهم إلى أعمالهم الأولى الذين كانوا يعلمون بها من قبل . لأن السادة أصحاب الأعمال كانوا تحت رحمة العمال ، لأن السيد إذا أشتكى قلة الجهد المبذول من العامل ، أو هدد العامل بعدم زيادة الأجور ؛ كان العامل يهدد بترك العمل [٣] .

وفى سنة ١٣٧٨م وجد البرلمان ضرورة وضع حد معين للأجور يلزم السيد والعامل ، لمواجهة العمال فى عدم المطالبة بأجور مرتفعه ، وذلك لمواجهة العمال أسعار السوق المرتفعة وأسعار احتياجاتهم الضرورية ، ومحاولة البرلمان الحد من هجرة عمال الريف ، وربما نجحت التشريعات البرلمانية إلى حد ما من تقيد الأجور، ولكن فى نفس الوقت لم تمنع زيادتها ، والذى جنته هذه التشريعات البرلمانية هو زيادة العداء بين الطبقات الذى ولد فى النهاية العديد من الثورات [٤].

ففى إنجلترا أدت الثورة الاجتماعية الناجمة عن سلسلة الأوبئة ، وقوانين العمال المتتالية للأجور، ونقص المحاصيل إلى فرض ضرائب باهظة على الشعب الإنجليزي مما أدى إلى ثورة الفلاحين. ومرة أخرى كانت الضرائب والسجل المستمر من الإخفاقات العسكرية والبحرية فى كل جهد حربى جديد سبباً فى سلسلة من الانتفاضات الساخطة بين العوام فى البرلمان ، مما أدى إلى استحالة حفاظ مستشاري الملك على سياسة ثابتة. وأخيراً أدت مؤامرات النبلاء الراغبين فى

3- موريس كين : المرجع السابق ، ص٢٥٣ .

1- Vickers , OP. cit., P. 252.
2- Vickers , OP. cit., PP. 252-253.
3- Vickers , OP. cit., P. 253.

تحويل هذا السخط لصالحهم ، لكى يحرزوا نفوذاً أوسع فى المجلس الاستشاري إلى خلع الملك ريتشارد الثانى خليفة الملك إدوارد الثالث سنة١٣٩٩م[١].

وأن كانت الضرائب الإنجليزية فى القرن الرابع عشر نوعين الأولى ضرائب عقارية ، والثانية ضرائب كسريه على الأملاك الشخصية.

فمن النوع الأول كان دفع الرسوم الإقطاعية شرطاً لتملك الأرض وخارجاً عن سلطة البرلمان ، وجميع الضرائب العقارية مثل الضريبة المئوية والبدل العسكرى ، والضريبة التى كان يجبيها الملك عن أراضيه ومدنه الخصوصية ، وكان البرلمان ينظر إليها بعين الشك والريبة ، لأن الملوك كانوا عرضة لأن يجبوها فى الضرورات ، وأن لم يكن محرماً على الملك تمام التحريم أن يضرب ضريبة على أراضيه الخصوصية ، وعندما كان يفرض الملوك ضريبة على الشعب كانوا يصادفون جميعاً مقاومة الشعب . ومنذ ١٣٤٨م لم يعد يسمع شئ عن الضريبة المئوية (٥ شلنات على كل ١٠٠ آكرا) ولا عن البدل العسكرى ولا عن الضريبة الخصوصية على أملاك الملك . أما الضريبة على الأملاك الشخصية (المنقولات) كانت تجبى فى القرنيين الثالث عشر والرابع عشر تحت سلطة البرلمان [٢] . ومنذ العهود الأولى لاحظ التجار الذين استغلوا تجاراتهم الخصوصية " عادة " أعطاء الملك جزءاً من صادراتهم وواردتهم كرسم رخصه ، وقد أصبحت هذه " العادة " مع مرور الأيام ضريبة غير صريحة ، ودعيت باسم " العوائد " . مثال ذلك إذا قدمت سفينة بعشرين برميلا من الخمر بثمن عشرون شلناً للبرميل ، كان للملك برميلان منها على معدل واحد بالعشرة . ولهذا كان التاجر يرفع ثمن البضاعة التى عليها " العادة " أو الرسم . بسبب هذه الرسوم المضروبة على التجار أستطاع الملوك أن يزيدوا دخلهم جداً ، وبما أن هذه الرسوم كانت "عادية " ولم يكن للبرلمان سيطرة عليها . وجمع الملك إدوارد الثالث الأموال لحروبه من الضرائب الثقيلة التى ضربها على التجارة الرائجة ولا سيما تجارة الصوف . وقد بذل مجلس العامة جهده فى أن يتولى الرقابة على " العوائد " كما تولاها على سائر الضرائب ، ولكن الأمر يستلزم جهداً عظيماً لأن الملك لم يتردد فى أن يخلف بوعده فى المسائل المالية. ولكن قبيل وفاة إدوارد الثالث نال المجلس بغيته ، وأصبحت الضرائب التجارية غير قانونيه إذا لم يكن البرلمان متولياً أمرها [٣] .

وفى شهر ربيع سنة ١٣٧٩م تمت الموافقة على فرض ضريبة رأس أخرى لكل فرد من الذكور يزيد عمره عن الرابعة عشر . وتدرجت هذه الضريبة ، وبدأت بعشرة ماركات كحد أقصى ، وأربعة بنسات كحد أدنى ، وتحددت على

4- موريس كين : المرجع السابق ، صـ٢٧٢ .

١- دافد واطسن رانى : المرجع السابق ، صـ٨٧-٨٨ .

2- Keen M., England In The Later Middle Ages, London, 1973, P. 66.

أساس أن يدفع كل من دوق لانكستر ودوق بريتانى عشرة ماركات . وأن يدفع كل فرد من أعضاء المجلس الملكى وكبار قضاه الدعوى العامة ، وأمين عام خزانة الدولة خمسة جنيهات . وأن يدفع كل فرد من الأيرلات وأرامل الكونتات ورئيس مجلس مدينة لندن أربعة جنيهات . وأن يدفع كل فرد من البارونات ومقدم فرسان الإستباريه وعضو مجلس مدينة لندن ورؤساء المدن الكبرى وضباط الهيئة التشريعية والمحامين والموثقين العموميين وكبار المحامين التابعين للدولة جنيهين . وأن يدفع كل فرد من الفرسان المساعدين وأراملهم وقادة فرسان الإستباريه ورؤساء المدن الصغرى والمحلفين وتجار المدن الكبرى والمحامين والموثقين العموميين من أصحاب المراتب الصغرى ما بين عشرين شلناً إلى ثلاثة شلنات وأربعة بنسات وأن يدفع العمال والأقتان أربعة بنسات [١] .

والحقيقة أن ضريبة الرأس التى فرضها البرلمان وهى الضريبة الأولى سنة ١٣٧٧م والثانية ١٣٧٩م ، كانت قيمة كل الضريبة واحدة بالنسبة للعمال والأقتان ، عندما قررت الدولة عن طريق البرلمان فرض ضريبة فى الخامس من نوفمبر سنة ١٣٨٠م ، أقرتها شلناً عن كل فرد مهما كان وضعه ومركزه الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي ، والملاحظ أن هذه الضريبة صارت ثلاث أضعاف المعدل السابق بالنسبة للعمال والأقتان ، وأن كانت تختلف بالنسبة للطبقات الاجتماعية . أما الكنيسة فكان الوضع فيها مختلف ، حيث لم تفرض ضريبة الرأس على رجال الأكليروس ، لأن الكنيسة دفعت مبلغاً من المال قدره خمسون ألف مارك وهى ضريبة تشمل كل الكنسيين [٢] .

والحقيقة أن سبب كثرة الضرائب فى عهد الملك إدوارد الثالث راجع إلى حروبه الطويلة مع فرنسا . تلك الحرب التى كلفت خزانة إنجلترا أموالاً طائلة ، وتلمس البرلمان الإنجليزي كافة الوسائل لجمعها وتحصيلها ، ثم ارتأت الطبقة الاقطاعية أنها وحدها تتحمل عبء الضرائب دون مشاركة الفلاحين بنصيبهم فيها ، فتقدم السير روبرت هليز R.Hales بمشروع قانون إلي البرلمان بفرض ضريبة الرأس علي من تجاوز الخامسة عشر من جميع المواطنين ، وتتراوح قيمتها ما بين شلنين والثلاث جنيهات. وأقر البرلمان الضريبة عام ١٣٨١م وجمعتها الحكومة في سهولة ويسر أول الأمر ، غير أن المتقدمين تحايلوا علي التخلص منها. فوقع عبئها الأكبر علي الطبقات الفقيرة ، ولاحظ محصلوها زيادة كبيرة في عدد سكان إنجلترا عنه منذ أخر ضريبة لسنوات قليلة مضت ، ومع ذلك قل عدد دافعي الضرائب في إنجلترا ، فأرسلت الحكومة لجانا للدراسة والفحص

١- محمد فتحى الشاعر : المرجع السابق ، صـ٢٣-٢٤ .

- Stubbs , OP. cit., P. 468 ; Oman, The History of England, Vol. IV , 1485, London, 1920, P. 32 .

2- Oman, op. cit., P. 21; Stubbs, op. cit., 468 – 469 .

[١]. وكانت لهذه الزيادات المتكررة من قبل البرلمان، ورفض الفلاحين والعمال دفعها. وكان لها تاريخ دموي في إنجلترا، وكانت تلك الضريبة المتكررة من ضريبة الرأس الأولي والثانية والثالثة أن تفجرت الثورة الشعبية في إنجلترا ١٣٨١م ، وهي الثورة التي جعلت إنجلترا علي حافة الهاوية [٢].

ثالثاً: الأوضاع الاجتماعية في انجلترا:

عندما اعتلى ريتشارد الثاني (١٣٧٧- ١٣٩٩م) العرش وهو صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره فامتلأت البلاد في عهده بالقلق الشديد والحزبية البغيضة ، والهرطقة الدينية التي أذاعتها تعاليم ويكليف وجماعة اللولاردية ، تلك التعاليم التي تحدت نظم البابوية والكنيسة معًا، وأيقظت وعي الطبقات الكادحة وأوقفتهم على مساوئ النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة في انجلترا ، ففتح ملايين الفلاحين أعينهم على أسباب ما هم فيه من بؤس وشقاء وحرمان ، وقاموا بثورتهم المشهورة ١٣٨١م والتي انتشرت بأرجاء انجلترا ، وأحدثت هذه الثورة هزات اجتماعية خطيرة[٣].

وكانت الهيئة الاجتماعية في انجلترا قبل ثورة الفلاحين ممثلة في طبقتين الأولى التجار والثانية الفلاحين والعمال الأحرار، وفي البداية كانت الهيئة الاجتماعية مؤسسة بالأكثر على المصالح الزراعية ، حيث أن كل طبقة تمتلك الأرض رأسًا ، ولكن كما كانت الزراعة تتقدم مع الزمان صار من الضروري أن تصدر البلاد ما زاد على حاجتها من حاصلاتها وتستورد ما تحتاج إليه من حاصلات سواها ومن ثم نشأت التجارة ، ونمت طبقة أهل الحرف في الأمة الإنجليزية فكان بعضها تجارًا يبيعون ويشترون ، وبعضها صناعًا يحولون بعض الحاصلات إلى المعامل ، وهكذا ازدادت ثورة البلاد جدًا ولا يخفي أن طبيعة الحال قضت أن يساكن أهل الحرف بعضهم بعضًا وحاجاتهم أكثر من حاجيات سواهم . فكانت تدعو إلى اتساع المدن ونجاحها وارتقائها في سلم العمران[٤].

وكان ازدياد التجار ونمو التجارة سريعي التدرج ، وكل الملوك تقريبًا كانوا ميالين إلى تقوية التجارة وتعضيدها لأسباب عديدة ، والدستور الامتيازي نفسه يقضي بحرية التجارة ، حيث كان ادوارد الثالث نفسه يصدر الصوف، ولقد كان تأثير التجارة على الضرائب واضحًا ، ومما لابد من تذكره هو أن طبقة التجارة الكبيرة كانت في القرن الرابع عشر تسكن الحواضر التي اتسع نطاقها، وكانت

نظير حسان سعداوي :المرجع 155.

1 - السابق ، ص

2-Froissart Chronicles , p.223 .

3 -نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص١٥٤.

4 - دافد وا طسن: المرجع السابق، ص٨٢- ٨٣.

منفصلة عن طبقات الذراع والفلاحين ، ومجاورة لطبقات البارونات والفرسان والمزارعين[١].

أما عن الطبقة الثانية وهي طبقة الفلاحين والعمال الأحرار، وبين طبقات المزارعين والإقطاعيين نشأت طبقات جديدة غيرت حالات الهيئة الاجتماعية تغيرًا كليًا وبالطبع أفضت إلى تغيير نظم الحكم . فالحقيقة أن كل الأشخاص ماعدا الأرقاء يعدون مزارعين بالنسبة إلى الأرض إلى يملكونها. فقد كان الملك هو مالك أراضي البلاد كلها وكبار البارونات أتملكوا أراضيه على شرط أن يخدموه خدمًا معينة ويعطوه أموالاً مقررة القيم، ومن جهة أخرى الفلاح الذي لم تكن له أهمية وكان يعمل عمل الزراع ، حيث كان مقامه في كوخه ثابتًا وانتفاعه من الأرض التي يشتغل فيها دائمًا. وما دام يعمل لسيده فلا تنتزع الأرض من يده. وهكذا لما كان نظام الإقطاع في منتهى نفوذه في انجلترا ، كان كل ساكن في البلاد البارون حتى الفلاح (ماعدا الرقيق) مزارعًا بمعنى واحد وملكا بمعنى آخر ، وكان يفترض أن يكل امتلاك ماعدا امتلاك الملك مزارعه والحقيقة أن المزارعة كانت امتلاكًا[٢].

على الرغم من أن الأراضي التي كانت تحت أيدي هؤلاء المزارعين كانت في أمان ، ففي المقابل كانت الأعباء عليهم ثقيلة ، ورغم أنهم كانوا أحرار في البداية ، ولكن ارتباطهم بالأرض أصبح من الصعب عليهم مغادرتها ، فكانوا أشباه للعبيد أو أقناناً ، واعتمد السيد الإقطاعي اعتمادًا كليًا عليهم في الخدمات المحددة في ذراعه أراضيه . وكان القس يعيش على هذه الأرض لرعاية أسرته من نتاجها، ويسدد للسيد الإقطاعي الإيجار النقدي المستحق عليه[٣].

وأن تحسن وضع المزارع في القرن الرابع عشر لسببين:

الأول: أن كثيرين من الفلاحين والمزارعين الأصاغر كانوا يستأجرون الأرض من ذويها ويدفعون الأجرة إما نقدا أو من نفس الغلة. وأخيرًا أصبح الفلاحون المزارعون يستأجرون الأرض التي في أيديهم من ذويها ويدفعون أجره بدل الخدم التي كانوا يقدمونها سابقًا، وكانوا على الغالب متولين وأسعد حالا من المزارعين الأوساط القدماء الذين كان امتلاكهم مثقلا بالإتاوات الإقطاعية المفروضة عليهم لسادتهم . أما الثاني: فإن طبقة الفلاحين السفلى الذين كانوا يملكون أكواخهم ما داموا يشتغلون في حقول ساداتهم ، وكانوا ينوءون تحت ضغط الاستبداد والظلم ، وكانوا يطالبون بحق تأجير أنفسهم حيثما ينالون أجره أوفر.

---

1 - دافد واطسن راني: المرجع السابق، ص٨٣.

2 - دافد واطسن راني: المرجع السابق، ص٨٣- ٨٤.

-Trevelyan , England in the Age of Wycliffe, London, 1963, p. 184 ؛ Vinogradoffoff, Villainagein England, Oxford, 1892, pp. 132- 133.

3 -Reville A., le Soulevement des travailleurs d'Angletre en 1381,Paris,1898,p. 41.

وبالتدريج كانوا ينالون مطالبهم، وكانوا في بعض الأحيان يضطرون أن يهربوا إلى الحواضر وأحيانًا كان الأكليروس يتوسطون بين العامل وسيده وكثيرًا ما كان السادة يبيعون للعبيد حريتهم. فهذه الأمور جعلت تكسو الهيئة الاجتماعية ثوبًا جديدًا في العصور الوسطى ، فإنها كانت تحول العلاقة التي بين الناس من إقطاعية إلى تجارية، وكانت أفضل سياسة اتبعها الملاك أن يفتحوا السبيل لجهاد العمال في سبيل حرية العمل. وفي أواخر القرن الرابع عشر جعلوا يتأسفون على تساهلهم مع العمال ومنحهم الحرية ، وحاولوا أن يستعبدوهم كالأول. فكانت النتيجة أن تمرد هؤلاء وعمدوا إلى السلاح ، ونشبت ثورة ١٣٨١م وهي ثورة الفلاحين ، وأن كانت عظيمة حتى أعمل الملك ريتشارد الثاني كل فكره وبذل كل جهده في قمعها[١].

ويبدو أن تغير نظام الخدمات بين السيد الإقطاعي والقس ، قد خففت كثيرا على القس ، فقد كانت الخدمات في البداية جبرية فإذا مرض القس لم يستطيع الوفاء بها. أما بعد ذلك وقبل الثورة أصبحت الخدمات يمكن تأديتها بالأجور النقدية حيث كانت تدفع للسيد الإقطاعي، وبذلك لم يكن القس عبدًا لسيده يتصرف فيه كيفما يشاء[٢]. ثم بعد ذلك قام السادة الإقطاعيين في الاعتماد على الخدمات في مقاطعاتهم بنظام العمالة المؤجرة ، وذلك لأن القس سواء قام بالعمل أو لم يقوم به يحصل على قوت يومه هو وعائلته من أرض السيد، لذلك قام كبار الملاك بتحرير أقنانهم بالجملة ، لاسيما بعد أن ثبت لهم أن الاعتماد على جهود الاقنان مجزي لهم ، وأنه من الأجدى لهم استخدام ذراعين مأجورين[٣].

والحقيقة أن ثورة الفلاحين في انجلترا كانت في حقيقتها محاولة خالصة لثورة اجتماعية في مواجهة السادة الإقطاعيين والنبلاء لاغتصاب السلطة التشريعية والمالية منهم ، ولقد تسببت الشدة التي كان النبلاء والسادة يستخدمونها في جمع المكوس والغرامات الثقيلة عليهم للقيام بهذه الثورة. فقد أيقظت منهم فيهم روح الصراع لدرجة جعلتهم ينظرون للأغنياء وللكنيسة نفسها كأعداء طبيعيين لهم، وكان يكفي آنذاك ليشك في أى شخص يعيش على دخل الأرض. ولقد رفض الفلاحين دفع العشور وطالبوا الأديرة بتوزيع غلالها على الناس ، ولم يستطيع القس أن يبتعدوا عن الكراهية التي استولت على العامة ، ولذلك أعلن أحد قواد حركة التمرد أنه يتمنى أن يرى آخر واحد منهم معلقًا على المفصلة وبمزيد من القسوة، واضطر النبلاء والأغنياء إلى قتل أقاربهم أمام العامة ولم نعد نرى. ويقول كاتب معاصر لتلك الأحداث في ذلك "أن بلاء التمرد وصل لدرجة كره فيها الناس

١ - دافد دواطسن راني: المرجع السابق، ص٨٤-٨٥.

٢- Vinogradoff, Villainge in England, pp. 179- 180.

3- Vickers , op .cit., pp. 252- 232؛ Trevelyan , op .cit., p. 185.

الحياة" وللقضاء على هؤلاء الثوار: الذين كانوا كالوحوش المجردة من الشعور والعقل" والذين هددوا بالإطاحة بالنظام الاجتماعي[١].

ولقد كانت ثورة الفلاحين في انجلترا ثورة اجتماعية شعبية قام بها سكان المدن وسكان الريف على حدًا سواء، ومن الممكن أن تعتبر كتعبير عنيف وخارج عن الشعور بسبب التناقص القائم بين العمل والرجال الذين يعيشون على كدهم . ولم تختلف ثورة الجاكري في فرنسا من ثورة الفلاحين في انجلترا ، فإن ظروف الفلاحين الإنجليز كانت قد تحسنت خلال القرن الثالث عشر ، مع نمو فائض أموال الإيجارات لخدمة العمال ، لكن في كل الجفالك ظلت هنالك تقريبًا بقايا من عبودية الأرض ، ووجد الفلاحين النصف أحرار في النظام الإقطاعي كل ما هو غير محتمل بسبب الارتفاع في الأسعار والأجور الذي تلا الطاعون وتسبب في سوء أحوالهم وليس هنالك ما يثبت أن سبب ثورتهم هي محاولة من جانب مالكي الأرض زيادة مطالب وخدمات العمل. من ثم بدت هذه الثورة كمحاولة لزعزعة ما تبقى من نظام الجفالك لمصلحة الشعب. ومن المحتمل أيضًا أن أفكار تصوف اللولاردبين قد ساعدت في أن تثير فيهم كراهية "الأسياد" الذين لم يكن لهم وجود حيث خلق آدم حواء ، ولقد أعطت ثورتهم مظهر حركة موجهة ضد النظام الاجتماعي القائم . لكن الرعب الذي انبثق عنها كان قصير العمر. ولقد كان التفاوت كبيرًا بين قوى المحافظين والفلاحين الذين كانوا تعطشهم للانتقام .

أنشئوا صورة أزلية للعالم مبنية على العدالة والمساواة. وبعد انقضاء أشهر قليلة استقر الأمر وعاد إلى ما كان عليه. وقد كان يكفي أن يظهر الملك نفسه وأن يصطف الفرسان لإنهاء مثل هذا الموقف الذي كان بمثابة قعقعة أكثر منه حربًا[٢].

وعندما ثار صناع لندن وفلاحو الكونتات الجنوبية الشرقية في انجلترا ١٣٨١م لم يكن الموت الأسود أو التشريعات العمالية هي الأسباب المباشرة لأى من هذه الثورات ، ولكنها كانت عوامل مساعدة ، ولا يملك المرء سوى الدهشة والتساؤل عما إذا كانت الثورات ستحدث لولا صدمة الوباء والفجوة المفاجئة ، والتي كشفت عنها بين مصالح ومصالح العامل في الريف. هذه الفجوة المتزايدة بين الناس الذين يفلحون الأرض وسادتهم. ربما كانت أهم ما يميز تطور التاريخ الزراعي أواخر العصور الوسطى . كما أن تدخل الحكومة في العلاقات بينهما أبرزها في مكان الصدارة . لقد كانت نتيجة طبيعية لعملية بدأت قبل الوباء بزمن طويل ، وهو تحويل خدمات العمل القديمة التي كان الفلاحون قد اعتادوا تقديمها لصاحب الأرض مقابل حيازة الأرض إلى إيجارات . ويرجع السبب في انتشار الإيجار من ناحية العوائد المضمونة التي كانت توفرها الإيجارات في فترة

١-هنري بيرين: المرجع السابق، ص١٨٥- ١٨٦.

١-Bloc M., le Characters origin l'historie Françoise, Paris, 1931, p.112; Trevelyan, History of England, p. 202; Green, op .cit., p. 317.

محدودة ، ولم يكن الازدهار الزراعي فيها مستقرًا. ومن ناحية أخرى يرجع السبب في هذا إلى أن مستوطني الأراضي البور في الماضي ، والتي استصلح الكثير منها في القرن الثالث عشر والرابع عشر، كانوا دائمًا يدفعون إيجارات مقابل هذه الأراضي. وكان العامل الثالث هو تزايد تعقيدات حياة ملاك الأراضي الذين وفر لهم النمو التجاري مجالا أوسع من البضائع الجاهزة ومواد الرفاهية التي يمكن أن يشتروها. وإذا تعود مالك الأرض على مستوى معيشة اعلي وعلى دخل منتظم يمكن حسابه مما يوفره الإيجار بشكل مضمون ، صار من الضروري له أن يحاول تغطية مصروفاته ، وكان الأثر الكلي هو انهيار ما تبقى من الروابط المحلية المتينة التي كانت تربط بين السيد والفلاح لاستغلال الأرض وتقسيمها إلى طبقات اجتماعية عريضة[١].

والواقع أن مالك الأرض كان يحصل من الأرض نفسها على حرية أكبر هذه الحرية جعلت ملاك الأراضي باعتبارهم طبقة الأشراف Gentry في انجلترا أكثر وعيًا بوضعهم الاجتماعي، وأكثر إدراكًا لوجودهم كأسلوب حياة محدد. وقد جعلهم هذا أشد انتباهًا للمزايا والمصالح والهوايات ونمط التسلية ميز طبقتهم عن غيرها. وحيثما كانت الحكومة الملكية أقوى مما كانت عليه من ملاك الأراضي ، ففي انجلترا كان فرسان المقاطعة في البرلمان يقدمون سويًا "التماسات مشتركة" إلى الملك ، يطلبون منه أن يعير انتباهه لمصالحهم بأن ينظم الأجور ، وأن يكبت مبالغات من دعم دونهم اجتماعيًا. مثل هذا النشاط الجماعي شجع مالك الأرض الفردي على إدراك ذاته ليس بوصفه مجرد عضو في طبقته ، ولكن بصفته عضوًا في هذه الطبقة داخل مجتمعه الإقليمي أو الوطني.. ومن ثم كان يهمه كثيراً نجاح الحكومة في إدارة شئون هذا المجتمع[٢].

وتدين ثورات الفلاحين في القرن الرابع عشر حقيقة بمظهرها الخطير لوحشية الفلاحين. ولم يكن الفلاحون يستطيعون النجاح في ثوراتهم باعتمادهم فقط على أنفسهم. وبرغم أن طبقات المزارعين شكلت بالفعل الجزء الأكبر من المجتمع إلا أنها كانت لا تزال عاجزة عن أى تفكير في إقامة عالم جديد، وكل ما اعتبر هو أن هذه التحركات لم تكن سوى تفجيرات داخلية قصيرة الأمد، انفجرت بدافع الغضب الوقتين وبرغم أن التناقص الاقتصادي بين الفلاحين الذين يحرثون الأرض ويزرعونها والنبلاء الذين يمتلكونها، وكان كذلك بين العمال ورأسمالية

2-موريس كين: المرجع السابق، ص٢٥٤.

Bloch M., op.cit, pp. 118- 119.

١ -موريس كين: المرجع السابق، ص٢٥٤- ٢٥٥.

-Oman, op. cit, p. 29 ;Churchill W., The Birth of Britain, London, 1956, p. 291.

المدينة، إلا أن الإحساس به كان أقل ، بسبب الظروف التي جعلت فلاح الريف المقيد بقيود كثيرة إلى الأرض التي يزرعها[١].

وسيكون من العبث أن نبحث كثيرًا عن علامات نمو أحاسيس التضامن الاجتماعي داخل طبقة الفلاحين ، قياسًا على طبقة النبلاء. وحركة مثل حركة الفلاحين في انجلترا تطرح لمحات عن شيء من هذا النوع ، ولكن عمومًا كانت حياة الفلاحين المربوطين بالأرض تتيح مجالاً ضئيلا لتطور التضامن الطبقي . أما ما طورته الفجوة المتنامية بين ملاك الأراضي والفلاحين حقًا فهو الإدراك المتزايد بين ملاك الأراضي للوجود الجمعي للفلاحين كطبقة اجتماعية لها مصالح تختلف عن مصالحهم . ولم يؤد هذا بالضرورة إلى إضفاء الطابع الإنساني على موقف النبلاء تجاه من هم دونهم اجتماعيًا[٢].

أما العنصر الثاني بعد طبقة الفلاحين ، هم التجار والصناع صار من المحتم أن تكون القيادة في هذا المجتمع للتجار على الصناع ، وهم في الأصل أصحاب السبق في القيادة. لذلك خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر جندت ارستقراطية من بين مشاهير التجار، قاموا في كل مكان بأعمال الحكومة البلدية ، ولقد كانت حكوماتهم حكومة طبقية بمعنى الكلمة ، ولوقت طويل كان لديها مزايا كل هذه الطبقة من نشاط وحدة الذهن والتفرغ لخدمة المصلحة العامة ، التي كانت بالطبع متطابقة مع مصلحتهم الخاصة والضمان الرئيسي لهم. ولقد حمل العمل الذي أنجزته شاهدًا كبيرًا على هذه المزايا . وتحت هذه الطبقة اتخذت حضارة المدينة خصائص ظلت مميزة لها حتى النهاية . ولقد أسست كل أجهزة الإدارة البلدية ونظمت خدماتها المختلفة، وأسست الأمور المالية والائتمانية المدنية وبنيت ونظمت السوق، ووفرت المال اللازم لبناء أسوار متينة وفتح مدارس لسد كل احتياجات البرجوازية[٣].

وكان ظهور المدن بشكل أساسي هو الذي طور عملية الصناعة والتجارة كذلك ، أصبحت للقرى أهمية ومميزات عظيمة في الإنتاج الصناعي الذي يعتمد على الزراعة ، وإن كانت الصناعة هي عنصر الحياة في المدن[٤] ، والحقيقة أنه يمكن القول أن مدن العصور الوسطى كانت مسقط الرأسمالية ، لأنه بمرور الوقت اتجهت المدن إلى أن تصبح مراكز للصناعات والتجارة أيضًا. وبالرغم من أن معظم الإنتاج الصناعي حدث في المحلات الصغيرة وليس في المصانع الكبيرة ، فإن بعض رجال الأعمال المغامرين استخدموا أعداد هائلة من العمال لإنتاج السلع ، ففي العادة كانت صناعات النسيج على نطاق واسع ، ومن الطبيعي ألا يعمل

٢-هنري بيرين: المرجع السابق، ص١٨٧.
٣ -موريس كين: المرجع السابق، ص٢٥٥.
١ -هنري بيرين: المرجع السابق، ص١٨٨.

٢- Arthur, op .cit., p. 34.

هؤلاء العمال في المصنع ، وإنما في محلاتهم التي يمتلكونها أو في منازلهم ، ونظرًا لأن الملتزم الصناعي كان يرسل مواده الخام إلى عمالة بدلاً من إحضار العمال إلى المكان الذي به المواد الخام ، لذلك أطلق على هذا الأسلوب "نظام الإنتاج المنتشر"[١].

وتوافرت الأسواق لتسويق منتجاتهم ، وإن كانت الحياة الاجتماعية ما تزال تؤثر في طبقة المجتمع ، حيث يعمل كل صاحب حرفة مع الآخر ليكملوا بعضهم البعض. وكان يوجد مراقبة وإشراف على تنظيم الصناعات خوفًا من الغش ومن أجل تحسين الإنتاج . ولم يكن هناك ميزان قوى وعلاقات دولية لتحكم الإنتاج الصناعي[٢] ، ومن الصناعات التي اشتهرت بها انجلترا صناعة الغزل والنسيج ، أما الملابس الصوفية فقد كانت ذات شهرة واسعة في انجلترا كذلك ، ولقد ازدادت شهرة الصوف الإنجليزي من ثمن الملبوسات المنتجة والمصنعة منه خلال القرن الرابع عشر .

والتجارة كذلك أصبحت للقري أهمية ومميزات عظيمة في الإنتاج الصناعي الذي يعتمد علي الزراعة ، وأن كانت الصناعة هي عنصر الحياة في المدن [٣] . والحقيقة أنه يمكن القول أن مدن العصور الوسطي كانت مسقط الرأسمالية ، لأنه بمرور الوقت اتجهت المدن إلي أن تصبح مراكز للصناعات والتجارة أيضا . وبرغم من أن معظم الإنتاج الصناعي حدث في المحلات الصغيرة وليس في المصانع الكبري ، فإن بعض رجال الأعمال المغامرين استخدموا أعداد هائلة من العمال لإنتاج السلع – ففي العادة كانت صناعات النسيج – علي نطاق واسع . ومن الطبيعي ألا يعمل هؤلاء العمال في المصنع ، وإنما في محلاتهم التي يمتلكونها أو في منازلهم ، ونظرا لأن الملتزم الصناعي كان يرسل مواده الخام إلي عماله بدلا من إحضار العمال إلي المكان الذي به المواد الخام ، لذلك أطلق علي هذا الأسلوب "نظام الإنتاج المنتشر " [٤] .

وتوافرت الأسواق لتسويق منتجاتهم ، وأن كانت الحياة الاجتماعية ما تزال تؤثر في طبيعة المجتمع ، حيث يعمل كل صاحب حرفه مع الآخر ليكملوا بعضهم البعض . وكان يوجد مراقبة وإشراف علي تنظيم الصناعات خوفاً من الغش ومن أجل تحسين الإنتاج . ولم يكن هناك ميزان قوي وعلاقات دولية لتحكم الإنتاج الصناعي [٥]، ومن الصناعات التي اشتهرت بها إنجلترا صناعة الغزل والنسيج ،

---

3 - س. ورن. هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الانجلو المصرية، ١٩٨٨م، ص١٦٥.

١-William Ashley, op .cit., p. 35.

3 - Arthur, op. cit., p. 34.

3- س . ورن هلستر : أوربا في العصور الوسطي ، ترجمة محمد فتحي الشاعر ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٨، صـ١٦٥.

4-William Ashley, op. cit., p. 35.

أما الملابس الصوفية فقد كانت ذات شهرة واسعة فى إنجلترا كذلك ، ولقد ازدادت شهرة الصوف الإنجليزي من ثمن الملبوسات المنتجة والمصنعة منه . ومن خلال القرن الرابع عشر ازداد عدد النساجون وصانعي الأقمشة زيادة كبيرة جدا، وقد كانت صناعة الملابس ومازالت تشتهر بها هذه البلاد حتي الآن محصورة في المدن التجارية الكبري [١] .

ولقد أختلف العمال العاملون في صناعات التصدير في خاصية أساسية وحيده تختلف عن العاملون بالأجر في أيامنا هذه فبدلاً من تجمعهم في مصانع كبيرة ، فلقد وزعوا علي عدد من الورش الصغيرة ، ولقد كان معلم النساجون أو المقصرين للملابس سواء كانت مالكا للأدوات التي يستعملها أم كان مستأجراً لها . فقد كان عاملا أهليا يعمل لحساب رأسمالية تجارية كبري ، ولقد كان الإشراف المفروض من قبل السلطة البلدية علي الصناعة يعطي حماية أقل للعمال ، طالما كانت السلطة في يد كبار البرجوازيين الذين بينهم تجند سلطات المدينة . لنلاحظ المدي الذي كان لا يزال يسخر فيه صناع الصناعات الكبري حتي بداية القرن الرابع عشر . فلقد كان هؤلاء الصناع مطحونين من قبل مستخدمهم ، وكان معلموهم بدورهم مجبرين علي اضطهاد الصبيان وعمال اليومية الأجراء. ولقد ضغط تفوق رأس المال الذي أستطاع الاقتصاد المدني من خلاله تحرير بعض الحرف ، وضغط بكل ثقله علي أولئك المنتجين لصناعات الجملة التي كان لها التفوق والسيادة [٢].

واتفق أصحاب الحرف والتجار علي تكوين نقابة لهم لحماية مصالحهم التجارية ، ونمت تلك النقابات التجارية في المدن وكونوا اتحادات مثل اتحاد وحرفه الحياكة ، وإتحاد السروجيين، وصانعي الأقمشة ، وبائعي أدوات الخياطة ، وأن كانت النقابات متجردة من الرحمة حيال منافسيها ، فقد روي عندما كان الصوف أو الجلد الخام يورد للمدينة لبيعه فإنه إذا وضع احد أعضاء النقابة يده علي الصنف وعرض له سعراً لا يجرؤ أحد من خارج أعضاء النقابة علي بيعه له بأعلى من السعر الذي عرضه ، وكان الربح الناتج من البيع لا يعود لصالح المدينة ، وإنما لصالح أولئك الذين ينتمون إلي النقابة سالفة الذكر ، وأن مثل هذه المسائل كانت تساهم إلي حد كبير في إلحاق الضرر والظلم والفقر بالشعب[٣] .

---

١ -هنري بيرين : المرجع السابق ،صـ٣٩.

- William Ashley, op. cit., p.35.

2- هنري بيرين : المرجع السابق ،صـ١٧٨.

- Cunningham B A., English in Flounce on the untested, Cambridge, 1916, p56.

٢- ج . ج كولتون : عالم العصور الوسطي في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط٢ ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٤ ، صـ١٥١-١٥٢.

ولقد كانت النقابة هيئة مستقلة ، لها نظامها الإداري الخاص والموظفون التابعون لها ، ولها نظامها التدريبي ونظام التلمذة الصناعية الخاص بها ، كما كان لها مميزات عامة ، وأهم المميزات مواجهة النفقات الإدارية ، ودفع النفقات الاجتماعية الخاصة بمؤسسات مثل المستشفيات والكنائس ، وفي كثير من المدن صارت النقابات غنية وقوية لدرجة أن عضويتها صارت هي المؤهل الأساسي للمشاركة في حكومة المدينة . ولقد أدي الاحتقار النقابي إلي تطوير الحكومة المدنية وحمايتها . إذ كانت النقابة تعمل من خلال العائلة ، وكان من حق أولاد العضو أن يدخلوا النقابة ، أما الآخرون فكان يمكنهم الدخول فقط إذا وجدوا معلما يتتلمذون عليه في الصناعة ، وكانت فرصة الخارجين ضئيلة أمام أقارب الأعضاء ، وكان من المستحيل تقريباً علي العامل أن يرقي إلي مستوي الأرستقراطية ، التي كانت قد تشكلت لحماية أعضائها بتنظيم الأجور في مواجهة المنافسة بسوق العمل ، والتي كان من المحتم أن تستبعده [١].

وهذه الظروف أدت إلي قهر العمال والصناع ولا سيما عندما ترتفع الأسعار ، كما يحدث غالباً في أعقاب الوباء أو المجاعة ، عندما كانت منظمات أصحاب العمل تسعي لمنع ارتفاع الأجور استجابة لندرة قوي العمل . ومن ثم لجا العمال إلي تقليد مستخدميهم لتحسين أحوالهم ، وكونوا روابط للحفاظ علي مستوي الأجور لتحسين ظروفهم ، وكان هذا تهديداً لسيطرة النقابة التي كان أعضائها قد عقدوا العزم علي ألا يسمحوا به ، واستغلوا سيطرتهم علي الحكومة المدنية لكي يجردوا روابط العمال من صفتها القانونية . ولكن الكبت عادة ما يؤدي إلي إعادة تشكيل مثل هذه المنظمات تحت رداء الأغراض الدينية في الغالب . وعندما كان الصناع يحبطون في غالب الأحوال كان إحباطهم يولد الثورات الاجتماعية مثل ثورة الفلاحين في إنجلترا [٢].

وأن ظهرت هذه الثورة الاجتماعية بسبب عدم رضا الفلاحين والعمال وازدياد طبقة البرجوازيين الأغنياء ، وأصبح النظام الأرستقراطي في مدن كثيرة حكم بلوتوقراطي (حكم الأقلية الغنية) الحريصة علي منع السلطة عن كل ما هو ليس بعضو من أعضاء الأسر القليلة الغنية . وهكذا نمت معارضة اجتماعية وسياسية ضد الحكومة المدنية ، ولقد كانت المقاومة الاجتماعية بوضوح الأكثر عنفاً ، وقد أعطت الإشارة للثورة بتغيرات دموية واصلت مسيرتها في القرن الرابع عشر ، ولقد دعيت ثورة الحرفيين ضد الأرستقراطية في معظم الأحيان بثورة ديمقراطية ، حيث أن سلطة الأمراء كانت ضعيفة للغاية لتمنع هذه الثورات أو لتسيطر عليها ، فلم يعد يبقي سوي الإطاحة بها ، أوعلي الأقل إجبارها علي اقتسام السلطة التي فكرت في احتكارها . وبالنسبة لذلك كان الجميع متفقين أغنياء

١ - موريس كين : المرجع السابق ، صـ٢٤٧-٢٤٨ . - William Ashley ,p.39.

٢- موريس كين : المرجع السابق ،صـ٢٤٨ . - Colton , op. cit., p. 284.

وفقراء علي السواء ، ولم يكن التجار الذين كانت بأيديهم الأعمال التجارية في ذلك بأقل من الحرفيين والعمال والأجراء في الصناعات الكبيرة [١] . وكان علي الدولة حماية إنتاجها الوطني فلقد ظهرت أول بوادر التحول نفسها فى إنجلترا ، البلد الذي تمتع بأقوى حكومة متحدة عن غيرها . ففي النصف الأول من القرن الرابع عشر حاول الملك إدوارد الثاني أن يمنع استيراد الملابس الأجنبية ، ماعدا تلك المخصصة لاستعمال النبلاء . في سنة ١٣٣١م دعا الملك إدوارد الثالث نساجي الأراضي المنخفضة للإقامة في إنجلترا وأشهر ما تم في هذا الخصوص ذلك المرسوم الذي صدر سنة١٣٨١م الذي احتفظ بحق تجارة القطر للسفن الإنجليزية[٢].

رابعا :- أوضاع الكنيسة في إنجلترا قبل الثورة :-

كان من أهم أسباب ثورة الفلاحين في إنجلترا زيادة ثروة الكنيسة زيادة فاحشة ، فالحقيقة أن رجال الدين كانوا من كبار ملاك الأرض . وقد قدرت ثروة الرهبان وحدهم تقديرا جديا في بعض الأحيان بثلث ثروة الدولة ، وليس بوسعنا أن نعبر عن هذه الثروة بالأرقام ، ولكن من المحقق أنها كانت ثروة هائلة . وكان لهذا الوضع بطبيعة الحال أثره الكبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية . فقد كان الرهبان والأساقفة وغيرهم من رجال الدين يقتنون الأقتان اقتناءهم للأرض سواء بسواء . كما كان يفعل ملاك الأرض العلمانيين ، كانوا هم أيضا يتصرفون في العبيد بالبيع والشراء أو يتبادلونهم أو يتقسمونهم فيما بينهم . وكانوا يقسمون كذلك نسل من شاء له حظه العاثر أن يصبح تابعا لأحد السادة اللوردات ، بينما غدت زوجته هي الأخرى أماً لسيد أخر ، وليس لنا أن نلقي باللائمة علي رجال الدين لقبولهم الأحوال الاقتصادية التي كانت قائمة في زمنهم ، وبخاصة أذا عرفنا أن الفلسفة المسيحية الصحيحة وقتذاك كانت تبرر صراحة تلك الأحوال [٣].

ولقد كان توما الأكويني خير ممثل لتلك الفلسفة ويشبه جميع أخوته في تبعيته لفلسفة أرسطو ، تلك التبعية التي تكاد أن تكون منه مكان العبودية في معظم الشئون السياسية والاجتماعية ، فهو يتفق مع أرسطو في أن ما تحتاج إليه الدولة المثالية أنما هو جماعة من الفلاحين ذوي الأذرع القوية والفهم البليد ، علي أن يكونوا منقسمين علي أنفسهم بدافع من فقدان الثقة فيما بينهم . وفيما يختص بالعبودية والقنية ، نراه يدافع عنهما ليس لأنهما جهاز سليم فحسب بل لأنهم

١- هنري بيرين :المرجع السابق ، صـ١٨٨-١٩٠ .

2- William Ashley, pp .35-40; Williamson, London, 1930, p. 48.

1- ج.ج كولتون : المرجع السابق ، صـ٨٠.

يستحقان الدفاع عنهما معنويا كذلك. لقد كان يوحنا ويكليف [*1] – J. Wycliffe – المهرطق فيما نعلم المعلم الوحيد الذي رفض تبرير العبودية نظريا ، ولكنه لم يبد مع ذلك أية محاولة فعلية لمقاومتها ، ومن ثم فإننا حينما نواجه الحقائق كما كانت

*- ولد يوحنا ويكليف ١٣٢٨م في أحدي قري يوركشير ، وتلقي تعليمه في جامعة أكسفورد ، واكتسب شهره واسعة في مجال اللاهوت ، وجعله الملك إدوارد الثالث عضوا في البعثة الملكية التي أوفدها إلي بروجز لمفاوضة مندوبي البابا جريجوري الحادي عشر في بعض المسائل المختلفة بين الطرفين ، وبعد عودة ويكليف عكف في أكسفورد علي وضع عدة بحوث هامة حول العلاقات بين السلطتين العلمانية والكنسية ، وتحتل المسألة الملكية ركنا هاما من أبحاثه فهو يري الرب وحده له ملكوت السموات والأرض ، وأن جميع الصالحين من عباده لهم الحق في ملكية الأرض ، وأن الملكية الفردية جاءت لخطيئة أدم ، وعلي ذلك لا يصح أن تتردي الكنيسة في الخطيئة نفسها ، بل يجب أن تسمو علي الملكية الفردية ، كما يجب أن تتخلي عن ممتلكاتها ، علي أن يجوز للكنيسة أن تحتفظ ببعض أملاكها إذا استغلوها استغلالا طيبا ، وفي هذه الحالة يجب علي الملك أن يحدد جزء رمزي تحتفظ به الكنيسة ، ويفسر ويكليف الثروة الواسعة التي تمتعت بها الكنيسة ورجالها ، بأنها مظهر من مظاهر انصراف رجال الدين عن مهمتهم الأساسية ، ويعيب علي رجال الدين عدم تفرغهم لواجباتهم ، وانشغالهم بالسياسة والإدارة في حين أعتبر الدير به فئة من المتعطلين الذين يعيشون عيالا علي المجتمع ، ولهذا أنصب جزء كبير من نقد ويكليف للهيئات الديرية وبخاصة منظمات الأخوان الرهبان بسبب ممتلكاتهم الواسعة من جهة ، وإخفاقهم في إعلاء كلمة الرب من جهة أخري ، وقد صادفت أراء ويكليف هوي في نفوس عدد من الأفراد الإنجليز الطامعين في الاستيلاء علي الممتلكات الكنسية ، حيث كانت خطبة ومقالاته وعظاته تتميز بالسخط علي الكنيسة وأوضاعها بسبب التدهور الذي وصلت إليه . وطالب كذلك أن تكون العظات الدينية والكتب المقدسة بالإنجليزية لا باللاتينية ، وأن تكون العظات الدينية مستمدة من الكتب المقدسة فحسب ، وعارض في كتابه "حقوق الملكية " النظرية العالمية التي قامت عليها الكنيسة في العصور الوسطي . وفي كتابه " أصول السلطات المدنية " نراه يهاجم رجال الدين هجوما عنيفا ، وتطور في أرائه وتعاليمه بعد موقف الكنيسة العدائي منه ، فأنكر شرعية الاعتراف ، كما أنكر معجزة التحول المادي في العشاء الرباني ، وكذلك وساطة رجال الدين بين الله والناس ، وكانت التعاليم بالنسبة لمجتمع القرن الرابع عشر متطرفة للغاية ، واعتبرتها البابوية والكنيسة هرطقة ، فاستدعوه في لندن سنة١٣٧٦م لشرح أرائه علي الملأ مما أثار رجال الدين ،وأنكر البابا جريجوري الحادي عشر آراء وتعاليم ويكليف ، وأرسل البابا إلي الملك إدوارد الثالث مكافحة تعاليم ويكليف والقبض عليه ، وكان إدوارد قد توفي قبل وصول الأوامر البابوية ، إلا أن الموقف أنتهي بطرد ويكليف وشيعته من أكسفورد ، فأعتزل بقية حياته في احدي القري حتي مات في هدوء سنة ١٣٨٢م ، وبعد موته انتشرت حركته في إنجلترا ولاقي أتباعه اللولارديون – Lollards- الكثير من الاضطهاد من قبل السلطات الحاكمة ففي سنة ١٤٢٨م أخرج فلمنج أسقف لنكولن عظامه وأحرقها والقي بها في اليم .

- سعيد عبد الفتاح عاشور : صـ٥٢٣-٥٢٤ ؛ فنشر ، جـ٢ ، صـ٣٦٤- ٣٩٦ ؛ ج . ج كولتون : المرجع السابق ، صـ٨١-٨٢ .

- Cam. Med. Hist., Vol VII, pp. 497- 498 ; John Richardson, the Annals of London, pp. 53-54 ؛ Buckley, op. cit., pp. 96-97 ؛ Mowat, Anew History of Great Britain, London, 1926 pp, 141-144 ; Myers, England the Middle Ages, pp.66-72.

عليها ، نجد أن ثروة الكنيسة الفاحشة لم يكن ينتظر منها ان تعوض ما منيت بها شعبيتها من تدهور حيال الأجير ويبدو أن ملاك الأراضي من الرهبان والأساقفة كانوا إلي حد ما أخف وطأة من كبار الملاك العلمانيين . ولكن لم يكن من بين ملاك الأرض كهنة الأبرشيات ، فضلا عن ذلك فقد كان نظام الواجبات الكنسية في جملته سببا لإحداث قدر كبير من الاحتكاك ، وفيما عدا العشور ، وكانت كل هذه الهبات اختيارية ، كذلك كانت العشور تشكل ضريبة ثقيلة للغاية لقد كانت عمليا عبارة عن ضريبة دخل تسدد بواقع شلنين عن كل جنيه ، وكانت تمتد إلي الطبقات الدنيا حتي تصل إلي خدم المنازل طالما كانت هذه الضريبة جديرة بقيام المحصل لجبايتها ، وكانت تحسب علي جملة الإيراد ، دون أي أذن مقابل ما كانوا يتكبدونه من النفقات المتصلة بالعمل ، وأمامنا مثال لذلك الصدام الذي وقع في ابرشيه اكستير – Exeter Diocese- ذلك أن كاهن الأبرشية طلب حصته العشرية من اللبن في شكل الجبن المناسب ، ولكن بعض المزارعين امتنعوا عن إعطائه له إلا في شكله الخام ، وجاءوا به إلي الكنيسة ، ولم يكن القسس هناك ليتسلمه ، وصبوا اللبن علي الأرض أمام الهيكل ، منتهكين بذلك حرمة الجلالة الإلهية والكنيسة المقدسة . وهذا مثال واضح علي زيادة نفوز الكنيسة في إنجلترا[١].

وأن اختلفت المعاناة في المدنية عن الريف ، فقد طالب بعض سكان المدن بالاستقلال الذاتي، وعلي سبيل المثال في مدينة سانت البنز في ١٣٨١م دخل السكان في نزاع مرير بينهم وبين الكنيسة للحصول علي بعض الامتيازات حيث طالبوا بحقوقهم في رعي ماشيتهم في الأرض من العشب والكلأ ، وكذلك حقهم في صيد الحيوانات في الغابة الخاصة بالكنيسة ، وكذلك صيد الأسماك ، وعدم استخدام طاحونة الكنيسة . وتضامنت معهم مدينة دنستابل ، وكانت لهم نفس المطالب . وأجبر السكان في مدينة بيوري رهبان الكنيسة عن التنازل عن الصكوك الملكية ، وتعهدوا لهم بالموافقة علي مطالبهم [٢].

والحقيقة ان الحرية الشخصية كانت أهم تعاليم المسيحية الأولي والكنيسة ، فالكنيسة عارضت الرق بشدة في بدايتها . بيد أنه مع مرور الوقت أمتلك رؤساء الأديرة والأساقفة العديد من الضياع في كل أنحاء إنجلترا ، وكان عليهم الاهتمام بزراعة الضياع والخدمة فيها ،ولم تري الكنيسة أي تعارض بين الأخوة المسيحيين الأحرار والأقنان . ولكن الأقنان وصغار المزارعين والقساوسة الفقراء وجدوا هذا التعارض .

١- ج. ج كولتون : المرجع السابق ، صـ٨٢-٨٤ .

2- Stubble W., op. cit., p. 471-472; Ramsay, op. cit., pp. 162-163 ؛Vickers , op. cit ; p. 255 .

وإن كانت الكنيسة في إنجلترا علي جانب عظيم من الاستقلال ، ولكن بقي للباباوات قوة كبيرة وخصوصاً في أمرين : الأول أنهم دعوا لأنفسهم حق تقديم الأشخاص للأسقفيات والبطركيات الخالية . وكان في الأصل يتكون من لجنة الأكليروس المختصين بالكنيسة اللذين لهم الحق بأن يعينوا منهم شخصا للأسقفية والملك يعين من يشاء للبطركيه . وكانت ممارسة البابوات هذا الحق بلاء علي الكنيسة ، لأنهم كانوا يعينون في الغالب أغرابا وهكذا جعلت الكنيسة تفقد ثوبها الوطني . وإذ كان الأساقفة الأجانب يتربعون علي العديد من المناصب في مجلس النبلاء ويحكمون البلاد ، وكانوا ميالين إلي أن يخدموا أعداء البلاد . وقد جوهد مرات عديدة في رفع السيطرة البابوية عن الكنيسة الإنجليزية ، وأنتهي الجهاد بوضع " قانون التعين " في عهد الملك إدوارد الثالث ، ومن مقتضاه أن يكون حق التعين والسيطرة للملك ،وأن يقضي بالسجن علي من يعينهم البابا . أما الأمر الثاني : أدعي الباباوات سلطة قضائية عظيمة علي الأكليروس ، فكانوا يحرمونهم بمنشورات يصدرونها ، ولكن الشعب الإنجليزي قلما كان يحفل بها . فكانت الحكومة تسن القوانين إثر القوانين لرفع هذا الظلم ، ولكن علي غير طائل حتي سنة ١٣٩٣م لعهد الملك ريتشارد الثاني ، إذ قرر البرلمان قانونا سمي " ستاتيوت أف برميوتير " لنظر القضايا الإكليريكية الماسة بحقوق الملك علي أي محكمة بابوية ، وبواسطة هذين القانونين المهمين حفظت وطنية الكنيسة . وقد تهيأت الوسائل اللازمة لتغيرات مهمة في النظام الإكليريكي كان ينتظر حدوثها في أكثر من جيل [١].

ففي أواخر القرن الرابع عشر بدأت الصرخة من داخل جدران الكنيسة ، فقد لعب ويكليف دوراً بارزاً في مهاجمة الكنيسة وقال " أنه من المفترض علي كل رجال الأكليروس بدءا من البابا ، والكرادلة ، الأساقفة ، والقسيسين ، من أن يكون لهم المسيح عليه السلام أسوة حسنة في تقشفه وفقره " [٢].

وتضمنت أراء ويكليف في موسوعة ألفها ضمت تعاليم بطرس الوالدواني ويواقيم الفلوري ومارسيليو البادوني ، حيث أنكر سلطة القساوسة ، وعملية تحويل الخبز والنبيذ إلي جسد المسيح ودمه ، كما هاجم البابا علي انه المسيح الدجال ، ودعا إلي خلق كنيسة روحية خالصة ، وذلك بإعطاء الأراضي الكنسية للعلمانيين . وكان طبيعيا أن يكون هذا المبدأ الأخير من بواعث وسرور الحكومة الإنجليزية والنبلاء ، ولم تستطيع الكنيسة أن تضطهده في البداية[٣].

١- دافد واطسن راني : المرجع السابق ، صـ٩٠ -٩١ .

٣-Winn H., Wycliffe , London, 1929, p. 60؛ Myers, op. cit., pp. 66 -72.

3- نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، قصة حضارة البداية والنهاية ، ترجمة قاسم عيد قاسم ، القسم الثاني ، طـ٢ ، دار المعارف ، ١٩٨٦ ، صـ٦٦٦.

وتضمنت أراء ويكليف كذلك ، إيمانا منه بزيادة ثروة الكنيسة وانصراف رجال الدين عن مهمتهم الدينية ذكر " أنه لا يصح لرجال الدين المسيحي أن يمتلكوا شيئا ، ذلك لأن المسيح عليه السلام عاش أفقر البشر" وحرم علي الكهنة الأعمال المدنية التي تلهيهم عن العبادة ، وعليهم أن يعيشوا جوالين علي الصدقات ، ويجب علي السادة الإقطاعيين الامتناع عن وقف الممتلكات لصالح الكنائس حتي لا تزداد ثروتهم ويهتموا بها دون القداس ، وأن للملك الحق في حرمان الكنيسة من العائدات الخاصة بها ، ومن حق العلماني أن يحاكم الأساقفة ، وللملك سلطة عليا علي الأساقفة باعتباره الحاكم الأعلى للدولة والكنيسة معا [١].

لقد كانت آراء ويكليف تتمثل في إبعاد رجال الدين عن أي عمل دنيوي ، حيث أن الكنيسة موجودة في كل مكان ، وممثلة في خدامها العديدين . ويلي رجال الدين في الطبقات العليا أو الدرجات المقدسة القساوسة فالشمامسة فمعاونوهم مع من يعلوهم من كبار الأحبار أو المطارنة أو الأساقفة وهؤلاء جميعا محظور عليهم الزواج - قانون العزوبية – ويلي هؤلاء طائفة الكتبة ، وكان أفرادها يعيشون من دخل وظائفهم الصغيرة كالتراتيل في الخدمات الدينية الصغيرة ، أو العمل ككتبة أبرشيات أو مسك الدفاتر الحسابية ، ومن بين هؤلاء الكتبة الصغار يتعين علينا البحث عن أغلبية الرجال الذين دونوا الحجج الإقطاعية التي شهد ثورولد روجرز – Thorold Rogers- لوكلاء أصحاب الإقطاعيات بصحتها . لقد جني كثير من هؤلاء الرجال أرباحا طيبة عن طريق التجارة علي الرغم من المنشورات الكنسية المتعددة الخاصة بتحريم هذا النوع من الكسب . فكان بعض رجال الدين يبيعون المشروبات الروحية ، وأثري البعض الأخر من ممارسات الربا الذي كان يعتبر خطيئة حتي بالنسبة للمدنيين ، لأنه محرم صراحة في الكتاب المقدس [٢].

ورغم محاربة ويكليف استبداد الكنيسة ومساوئها العديدة ، ألا أن الأساقفة الإنجليز استماتوا في الدفاع عن كنيستهم للإبقاء علي أملاكها ، وعدم مصادرتها كما طالب ويكليف ، ويرجع عدم الرضا عن ازدياد ثروة الكنيسة إلي ما قبل ثورة

1-Winn Wycliffe, op. cit., pp. 60-61 ؛ Trevelyan, op, cit., pp.197-198 ؛ Green, op. cit., p.317.

١- الكتاب المقدس زاخر بالآيات الخاصة بتحريم الربا صراحة ففي سفر الخروج الإصحاح (٢٢- ٢٥) " أن أقرضت فضة لشعبي الفقير فلا تكن له كالمرابي ، لا تضعوا عليه ربا " وفي سفر اللويين الإصحاح (٢٥: ٣٥- ٣٧) " لا تعطه بالربا وطعامك لا تعطه بالمرابحة " وفي سفر التثنية (الإصحاح ٢٣: ١٩) " ولا تقرض أخاك بربا ربا فضه او ربا طعام أو ربا شئ عما يقرض بربا " وفي مزامير (مزمور ١٥: ٥) جاء : "فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة علي البريء " وجاء في حذقيال الإصحاح (١٨ -٨) " ولم يعط بالربا ولم يأخذ مرابحة " .
وعن تحريم الربا ، أنظر : أنجيل لوقا (الإصحاح ٦: ٣٥) ومتي (٢٥: ١٤ -٣٠) أنظر في ذلك :
- ج.ج كولتون : المرجع السابق ، صـ٧٤- ٧٥ ، صـ٢٤٥.

الفلاحين في إنجلترا ، في عهد حنا من جونت – J. Of Gannet- و أتباعه . وفي سنة١٣٧١م بدأ الصراع العلني علي مسرح العمل السياسي ، حيث فرضت ضرائب باهظة علي الكنيسة ، وتم التأكيد علي الأساقفة بعدم الجمع بين العمل المدني والكنسي [١]. وكان ويكليف يريد تجريد الكنيسة من ممتلكاتها . والأكثر من ذلك توزيع هذه الممتلكات الكنسية علي العلمانيين لذلك قام حنا من جونت باستدعاء حنا ويكليف من أكسفورد إلي لندن ، لنشر أفكاره ومبادئه في هذا الصدد في سنة ١٣٧٧م وانتشرت أفكاره انتشار النار في الهشيم في كل أرجاء أوربا ،حتي وصلت إلي بوهيميا علي يد تلاميذه [٢].

وإذا كان ويكليف ضد امتلاك الكنيسة للثروة الهائلة والأراضي الزراعية الواسعة ، فإنه لم يهاجم الإقطاع ، وإنما أيد سلطة الملك وملاك الأراضي إذ قال : " بالسعادة إنجلترا يا لوفرة الإنتاج بها!، إذ كان بكل ابرشيه رئيس دير طاهر الذيل يقيم بها مع أسرته ، وبل أقطاع مالك مستقيم يقيم به مع أسرته وأطفاله ، فعندئذ لن تكون هناك أراضي صالحه للزراعة وتترك دون استغلال، ولن تكون هناك ندرة في الماشية وإنما ستعم الوفرة كل أنواع الثورة في المملكة ، بما في ذلك الأقتان والعمال المهرة " بيد ان ويكليف كان يدرك تماما الأضرار المالية والمدنية التي عاني منها الفقراء وظهر ويكليف علي أنه نصير للفقراء الذين عانوا الحرمان ، أو تعرضوا للمعاملة الجائرة ،بيد أنه نصحهم بطاعة سادتهم والتفاني في أداء عملهم علي أحسن وجه . ويكشف موقفه تجاه ثورة الفلاحين بوضوح تام فيما كتبه في العام التالي علي حدوث الانتفاضة الشعبية ، عندما أشار إلي ثورة رجال الكهنوت باعتبارها السبب الرئيسي لحدوث تلك الانتفاضة الشعبية وفقا لوجهة نظره ، فإن الممتلكات التي تحت أيدي الكنيسة تخص الفقراء " ولا شك أن هذا هو سر البلاء في وجود النزاع والاستياء العام في المملكة " . ويري ويكليف أن كل أسباب النزاع يمكن أن تزول إذا ما قام الملك بمصادرة ممتلكات الرهبان والأخوان ورجال الكهنوت بصفة عامة ، وعمل علي تفريج الكرب عن الفقراء[٣].

1- Trevelyan, op. cit., p.39 .

2- Green ,op. cit., p. 308 ؛ Winn , OP. cit., p. 99 ؛ Myers, op. cit., pp. 66-72

محمد فتحي الشاعر : المرجع السابق ، صـ٢٢.

٢- أطلق هذا الاسم في القرن الرابع عشر علي أتباع ويكليف ثم أمتد ليشمل نقاد المؤسسة الكنسية ، وقد برزت جماعة أكسفورد من مثقفي جامعة أكسفورد ، ونظمهم نيكولاس هيرفورد أحد أتباع ويكليف . وكانوا يبشرون بتعاليمه ، وجذبوا إليهم إتباع كثيرين من شتي أنحاء إنجلترا . وقد أدينت اللولاردية بعد إخماد ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١م لأن الطبقات العليا اعتبروهم من دعاة الثورة ، وعلي الرغم من أن الكنيسة بدأت تضطهدهم سنة ١٣٨٢ فصاعدا ، فإنهم اكتسبوا شعبية بين البورجوازيين وأهالي الكوميونات ، وفقدوا نفوزهم بعد تمرد قاموا به بقيادة جون أولد كاسل في سنة ١٤١٤م ، عندما أخمد هنري الخامس عصيانهم بقسوة . انظر في ذلك .

- نورمان كانتور :المرجع السابق ، صـ٦٦٦ ، حاشية ٣ .

ورسم ويكليف بدعايته العلمانية خطة السير التي انتهجتها بعدئذ حركة الإصلاح الديني بغرب أوروبا بفضل تلاميذه "المبشرين الجوالين "الذين عرفوا باسم جماعة اللولاردية [١] وشجعتهم علي السفر والترحال في كل مكان لنشر مذاهبه ، حتي صارت اللولاردية أسم الحركة الإصلاحية الدينية في إنجلترا في القرن الرابع عشر . وتعاون أتباع ويكليف في إشعال نيران ثورة الفلاحين ، والتي كانت معظم قوادها من خارج نطاق الكنيسة [٢].

ولا ينبغي للمرء أن يبحث عن الروحانية في مناصب الكنيسة العليا في العصور الوسطي ، وإنما ينبغي أن ينشدها بين القساوسة الفقراء ، وفي أوساط العلمانيين الذين كانوا متأثرين بالتدين الشعبي الجياش . وقد أدي هذا إلي ظهور حركة تكاد تكون جديدة في الدين –Advectio Modern- كما أطلق عليها المعاصرون . ويمكن ان نلمس أبرز تعبير عنها في الجماعات التي عرفت باسم أخوان الفقراء – Friars - التي أسسها تلاميذ الناسك الفلمنكي جيرارد جروت (١٣٤٠ -١٣٨٤) وقد جمع جروت حوله طائفة من العلمانيين المتدينين . وعاشوا حياة جماعية وفق قاعدة أو دستور ، ولكنهم لم يتحولوا إلي إطار رسمي " ليست المواثيق بين الأخوان هي التي تجعل الأعضاء يشاركون العبادات والصوم ، ويشتركون في النظام والصلاة ، وإنما إتحادهم في الحب الأخوي " وكان في الديانة الشخصية للإخوان عنصر نفور من ثروات الكنيسة المعاصرة ، وإساءة استخدامها للسلطة ليست للقسيس سلطة جعل الرجل محل رضا الرب " هكذا كتب احد الإخوان [٣].

هكذا تلاقت أراء الأخوان الفقراء ، وآراء وأفكار اللولارديين في ازدياد ثروة ونفوز الكنيسة ، فبدأ الإحساس بالسخط علي رجال الدين ، وتعاونوا معاً علي إشعال نيران الثورة الشعبية في إنجلترا ، وثاروا ضد الظلم الاجتماعي الذي عانوا منه كثيراً ، فقامت ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١م نتيجة الإحساس بالفقر والظلم [٤].

١- نظير حسان سعداوي :المرجع السابق ، صـ١٥١.

- Green op. cit., p. 317.

٢- موريس كين : المرجع السابق ، صـ٣٠٤.

٣- Trevelyan, op. cit., p. 202.

4- Trevelyan, op, cit., pp. 202-203.

المصادر والمراجع

أولا:- المراجع العربية والمعربة :-

١- أدمون ديمولان : سر تقدم الأنجلو سكسون , ترجمة فتحي زغلول , مكتبة الرحمانية (القاهرة – ١٩٥٨م).
إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار , القسم الأول , جـ٢ , ط١ (القاهرة – ١٩٢٣م).

٢- أ.ل فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، ترجمة محمد مصطفي والسيد الباز العريني وإبراهيم العدوي ، القسم الثاني ، ط٢ ، دار المعارف (القاهرة – ١٩٥١م).

٣- أليشيا ستريت : إنجلترا شعبها وأراضيها ، ترجمة زينب محمود جوهر وعز الدين فريد ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة – ١٩٥٨م).

٤- ج.ح كولتون : عالم العصور الوسطي في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط٢ ، دار المعارف ، (الإسكندرية – ١٩٦٤م).

٥- جورج زيدان : تاريخ إنجلترا ، ط١ ، مطبعة الهلال بالفجاله ، (القاهرة ١٨٩٩م) .

٦- جورج كاستلان : تاريخ الجيوش ، ترجمة كمال دسوقي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – ١٩٢٣م .

٧- سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطي ، التاريخ السياسي ، جـ١ ، ط ٨ ، الأنجلو المصرية (القاهرة – ١٩٨٣م) .

٨- لويس الحاج الجيش الفرنسي : منشورات دار المكشوف ، ط١ (بيروت – ١٩٤٥م).

٩- مونيقورس الفرنساوي : تاريخ ملوك فرنسا من مبدأ ملكهم إلي الملك لويز فيليب ، ترجمة حسن قاسم ، ط٢ (القاهرة – ١٢٦٤م).

١٠- موريس كين : حضارة أوربا في العصور الوسطي ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، ط ، (القاهرة – ١٩٩٤م).

١١- نظير حسان سعداوي : تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطي ، دار النهضة العربية ، (القاهرة – ١٩٥٨م).

١٢- نورمان .ف. كانتور : التاريخ الوسيط ، قصة حضارة البداية والنهاية ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، القسم الثاني ، ط٢ ، دار المعارف (القاهرة – ١٩٨٦م) .

١٣- هنري بيرين : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي (الحياة الاقتصادية – والاجتماعية) ، ترجمة د. عطية القوصي ، النهضة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة -١٩٩٦م).

١٤- يوهان هويذنجا : اضمحلال العصور الوسطي ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الآلف الثاني رقم ٣٠٥ ، ط٢ ، (القاهرة -١٩٩٨م).

ثانيا:- المصادر والوثائق والمراجع الأجنبية :-

1- Aguste Molinier, les Sources De' Histoire d France.
2- Andrew Saint& Gillian Delray , the Chronicles of London , London , 1854.
3- Annals Londonienses , Chronicles of Rings of Edward I and Edward II, vol .1 (ed) w. Stubbs in Rolles series , London , 1881.
4- Anonimalle Chronicles , from 1333 to 1381, by V.H Galbraith , London, 1927.
5- Antonia Fraser , the lives of the kings & Queen of England , London , 1975 .
6- Arthur B M A. , An Economic History of the British isles , London , 1935.
7- Baker D., the later Middle Ages , 1216-1485 , London , 1968.
8- Barrow G W S. , Documents of Medieval History , Vol .V, Suffolk , 1984.
9- Brail L., Documents in English History , New York , 1975.
10- Buckley A B., History of England for Beginners , London ,1916 .
11- Callcott L ., Little Arthur's History of England . London , 1913.
12- Cambridge , Medieval History 8 vols ,Cambridge , 1963.
13- Charlotie M.yonge, History de France, London . 1909.
14- Churchill W., the Birth of Britain , London , 1956.
15- Charlton , Social life in Brittan the Conquest to the Reformation , Cambridge , 1938.
16- Colton, Medieval panoramas the English scene from Conquest to Reformation, press, 1949.
17- Colton G., Life in the Middle Ages ,Cambridge, 1926.
18- Cross A L., A History of England d Great Britain , New York , 1921.

19- Cunningham F B A. , English in flounce on the United states , Cambridge , press, 1916.
20- David Knowles , The Religious orders in England and Middle Ages vol . II ,London ,1955.
21- Davis R T. , Documents History of Civilization in Medieval England 1066- 1500 , London , 1926.
22- Davis H W C., Documents Europe from 800 to 1789 , London 1930 .
23- Derry, Blount & jarman & Carlisle , Great Britain from Earliest Times to the present day , press, 1962 .
24- Deity , Apolitical and social History of England , London , 1937.
25- Elizabeth & Prescott, the British of History Documents , London , 1930.
26- Feeling K., A History of England from the coming of the English to 1938 , London , 1948.
27- Frederick Chamberlin , the private Character of History English , London , 1930.
28- Froissart John ., The Chronicle of Froissart , vol II , London , 1938 .
29- Gardiner S T., English History , B.C 55 to A D , 1886, London , 1892.
30- Godwin Smith ; History of England , New York , 1949.
31- John Richardson , Annals London , London , 1988.
32- Gunnison P., Ahistory of England people , vol.II, London, 1972.
33- Green J Y., History of English people , vol. II , London 1895 .
34- Green J Y, History of France , Paris , 1934.
35- Henry Battenson , Documents of Christiauchwd , London 1944.
36- Herchow, England in the making ,vol .I ,London, 1963.
37- Hulme M E M. ,The Middle Ages , New York , 1937 .
38- Keen M., England in the later Middle Ages, London , 1973 .

37-kighoton H., Chronicles the Black Death , Y B .Dobson , London , 1970.
39- Kenneth O M. , the Oxford History of Britain , New York , 1983.
40- king E., England , 1175- 1425, New York , 1979 .
41- Kriehn G. ,The Social Revolt of 1381 in American Historical Review , vol ,VII 1902.
42- Lewis p.S.& Martin G.F.; The Recovery of France in the fifteen the century , Macmillan , 1971 .
43- Lodge R M A., the close of The Middle Ages 1272-1494 , period III, London , 1910.
44- Macksack M., Doomsday A search for toots of England , London ,1986.
45- Michael wood , Doomsday A search for toots of England , London , 1986.
46- Michel M.& Philippe W., The popular Revolutions of the Middle Ages , London , 1973.
45-Laviss E., Histore de France 1328-1422 Paris 1911 .
47- Michell Y J & legs M R., History of English people , London , 1950.
48- Mowat R B., ANew History of Great Britain , London , 1926 .
49- Oman C., History of England, vol , 1377-1485, London , 1920.
50- Oman C., History of England , Richard II and Richard III , London , 1924.
51- Painter S., A History of the Middle Ages , New York , 1954.
52- Petit Details , the Feudal Monarch in France and England from tenth to thirteenth century, London , 1949.
53- Prestwich M., The Three Edwards , London , 1980.
54- Ramsay J H., Genesis of Lancaster , 2 vols, Oxford , 1913 .
55- Reveille A., le Soulevement des Travailleurs d' Angletere en 1381, Paris , 1895.

56- Robinson J H., An introduction to the History of western Europe , London , 1962.
57- Rolles Series , The Chronicles of Great Britain daring the Middle Ages, London , 1905 .
58- Stephenson, Medieval History Europe , London , 1953.
59- Stephen wood , A History of London , Macmillan , 1998.
60- Stubbs W, The Constitutional History England ,vol .II, Oxford , 1887.
61- Thompson J W., History of the Middle Ages , 300-1500 , London , 1931
62- Tout, The History of England , 1216-1377, Vol , III, London , 1920.
63- Tout, France and England in Middle Ages , New York , 1922.
64- Trevelyan G., England in The Age of Wycliffe, London , 1963.
65- Trevelyan G., History of England , London , 1909.
66- Vickers K. , England in The later Middle Ages, fourth Edition , London , 1926.
67- Vinogradoff , Village in England, Oxford , 1892.
68- Vicomee M., L' History de France , Paris , 1981.
69- White R J., The Horizon concise History of England , New York , 1957.
70- Wilkinson B., The peasants Revolt of 1381, speculum. XV , 1940 , pp. 12-35.
71- Williamson J A., A short History of British Expansion , London , 1930
72- William Ashley , The Economic Organization of England , London , 1933.
73- William Hunt & Poole M.A. ; The political History of England ,Vol II , New York , 1920.
74- Winn , Wycliffe, London , 1929.
75- Wood ward, History of England , London , 1947.